المِلاك

لمعرفة عجائب وأسرار الآيات المتشابهة

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ - ٢٠٢١م

دار للنشر والتوزيع

الكويت

هاتف ٢٤٩٢٦٣٢١ - ٢٤٩٢٦٣٢٢ - النقال ٦٦٨٩٠٠٧٨ - فاكس: ٢٤٩٢٦٣٢٠

ص. ب ١٢٣٢٦ - الشامية - الرمز البريدي ٧١٦٥٣

Websit: www.hamel-almisk.com

E.mail: info@hamel-almisk.com

المِلاك

لمعرفة عجائب وأسرار الآيات المتشابهة

عدنان عبد القادر القادري

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدّمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد

«لقد سجل التاريخ العجز على (العرب) أهل اللغة أنفسهم في عصر نزول القرآن وهو أزهى عصور البيان العربي، وأرقى أدوار التهذيب اللغوي. وهل بلغت المجامع اللغوية في أمة من الأمم ما بلغته الأمة العربية في ذلك العصر من العناية بلغتها حتى أدركت هذه اللغة أشدَّها، وتم لهم بقدر الطاقة البشرية تهذيبُ كلماتها وأساليبها؟... ما هذه الجموع المحشودة في الصحراء، وما هذه المنابر المرفوعة هنا وهناك؟ إنها أسواق العرب تعرض فيها أنفَسُ بضائعهم وأجودُ صناعاتهم، وما هي إلا بضاعةُ الكلام وصناعةُ

الشعر والخطابة، يتبارون في عرضها ونقدها واختيارِ أحسنها والمفاخرَة بها، ويتنافسُون فيها أشد التنافس، يستوي في ذلك رجالهم ونساؤهم[(١)]

«لقد بلغ العرب في عقد القرآن مبلغاً من الفصاحة لم يعرف في تاريخهم من قبل[(٢)]. «إن أكبر هَمٍّ للعرب في أسواق المواسم (كعكاظ ومجنة وذي المجاز) في تخير اللغة وتهذيبها عملاً... فكانت (هذه الأسواق) مجالس للتحدث بأيامهم وحروبهم، ونوادي يتبارى فيها خطباؤهم وشعراؤهم. وقد كان في عكاظ إجماع على أن كلَّ كلمة تقال أو خطبة تلقى أو قصيدة تنشد لا تتصل بالفصاحة بسبب لا ينقلها أحد، ولا يرويها راوٍ، ولا يحفظها حافظ[(٣)].

(١) دراز (٨٣-٨٤).

(٢) إعجاز القرآن للرافعي (١٥٧).

(٣) معجم متن اللغة أحمد رضا (٤٢/١).

• سوق عكاظ

«سوق عكاظ في الجاهلية كان أشبه شيء بأكاديمية كبرى في بلاد الغرب. وكان الفائز في عكاظ يباهي بنفسه مباهاة البطل المـُجَلِّي من أبطال الإغريق في ألعابهم الأولمبية. بل ليس بين نائلي جائزة نوبل اليوم من يزيدُ فخره على فخر أولئك الفائزين في عكاظ الجاهلية[(١)]. لذا «قصد إليها الشعراء والخطباء والبلغاء في كل مكان في بلاد العرب، وكان معظم همِّهم انتقاءَ الألفاظ الفصيحةِ المعروفةِ عند أكثر العرب، طمعاً في أن تنتشر أقوالُهم[(٢)].

«وإن البلغاء من الشعراءِ والخطباءِ العرب لم يكونوا يقولون كلَّ ما يردُ على خواطرهم. وإنما كانوا يُنَغِّمون ويجوِّدون حتى يَظْفَروا بالكلام الجيد البليغ. وإن من الشعراء من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولاً كَرِيتاً (تام العدد) وزمناً طويلاً يردد فيها نظره، ويُحيل فيها عقله، ويقلِّب فيها رأيه اتهاماً لعقله، وتتبعاً على نفسه... وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلَّدات والمنقَّحات والمُحْكَمات ليصير قائلُها فحلاً خِنْذيذاً (مُجيداً، خطيباً، بليغاً) وشاعراً مُفلقاً (داهية)»[(٣)].

---

(١) د. فليب حتى وإدوارد جرجي وجبرائيل جبور: تاريخ العرب (١٣٧).

(٢) سوق عكاظ (١٧٨).

(٣) الجاحظ في البيان والتبيين (٧/٢)، سوق عكاظ لعرفان (١٧٨).

- **قضاة البلاغة**

«كان للعرب في سوق عكاظ قضاةٌ للشعر، تُضرب عليهم قبابٌ حمرٌ من أدم تكريماً لهم. فيتقدم منهم شاعر كل قبيلة فيعرضُ عليهم جديد ما قاله من الشعر[١]، «ويناقشهم الرأي في فصاحة ألفاظها وقوة تعبيرها وبيانها[٢] وينتظر حكم القضاء فيه «فما استجاده القضاة فهو الجيد، وما حكموا بضعفه فهو الركيك[٣] «فينتقدها القاضي نقد العالم الخبير بأسرار الفصاحة والبيان ثم يصدر حكمه[٤]. فما يكاد القاضي يُصدر حكمه حتى يتناقل الرواة والناس القصيدة الفائزة، فتنتشر في أحياء العرب حواضرِها وبواديها[٥].

«وفيها حُكِمَ على قصيدة امرئ القيس وجعلت من المعلقات السبع، وكذا عمرو بن كلثوم سعى إلى سوق عكاظ فقام فيها خطيباً وأنشدها فأعجب الناس بها[٦] وطارت بين العرب. وفيها انتقد النابغة قصيدة حسان بن ثابت ورد عليه حسان حينئذ.

(١) سوق عكاظ (١٨٢).
(٢) سوق عكاظ (١٨٤).
(٣) سوق عكاظ (١٨٢).
(٤) سوق عكاظ (١٨٤).
(٥) سوق عكاظ (١٨٢-١٨٤)..
(٦) سوق عكاظ لعرفان (١٧٩-١٨٠).

• دولة الكلام

«فقامت فيهم دولة الكلام ولكنها بقيت بلا ملك، حتى جاءهم القرآن[١]. ففي غمرة تنافسهم أشد المنافسة في النقد وصناعة البلاغة والفصاحة ومفاخرتهم بها في أزهى عصور البيان العربي وأرقى أدوار التهذيب اللغوي إذا بالقرآن ينزل على النبي محمد ﷺ.

فما هو إلا أن جاء القرآن... حيث جاءهم النبي ﷺ فتلا عليهم القرآن في سوق عكاظ[٢]. وكذا أتاهم ﷺ به في سوق ذي المجاز[٣]. «فإذا الأسواق قد انفضت إلا منه، وإذا الأندية قد صَفِرت إلا عنه. فما قدر أحد منهم أن يباريه أو يجاريه أو يقترح فيه إبدال كلمة بكلمة أو حذف كلمة أو زيادة كلمة أو تقديم واحدة وتأخير أخرى. ذلك على أن القرآن لم يسد عليهم باب المعارضة بل فتحه على مصراعيه، بل دعاهم إليه أفراداً أو جماعات، بل تحداهم وكرر عليهم ذلك التحدي في صور شتى، متهكماً بهم متنزلاً معهم إلى الأخف فالأخف: فدعاهم أول مرة أن يجيئوا بمثله، ثم دعاهم

(١) إعجاز القرآن للرافعي (١٥٧).

(٢) قال ابن عباس: انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ. فذكر قصة إسلام الجن. رواه البخاري (٤٩٢١).

(٣) قال ربيعة بن عباد الديلي: رأيت رسول الله ﷺ بصر عيني بسوق ذي المجاز يقول: «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا». رواه أحمد (٣/ ٤٩١-٤٩٢).

أن يأتوا بعشر سور مثله، ثم أن يأتوا بسورة واحدة مثله، ثم بسورة واحدة من مثله، وأباح لهم في كل مرة أن يستعينوا بمن شاؤوا ومن استطاعوا، ثم رماهم والعالم كله بالعجز في غير مواربة فقال: ﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1].

وقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾[2]. فانظر أي إلهاب، وأيَّ استفزاز! لقد أجهز عليهم بالحكم البات المؤبد في قوله ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ ثم هددهم بالنار، ثم سواهم بالأحجار. فلعمري لو كان فيهم لسان يتحرك لما صمتوا عن منافسته وهم الأعداء الألداء، وأباةُ الضيم الأعزاء، وقد أصاب منهم موضع عزتهم وفَخرهم. ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى معارضته، ولا سلماً يصعدون به إلى مزاحمته، بل وجدوا أنفسهم منه أمام طود شامخ، فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا[3] له نقباً... حتى إذا استيأسوا من قدرتهم واستيقنوا عجزهم ما كان جوابَهم إلا أن ركبوا متن الحتوف، واستنطقوا السيوف بدل الحروف. وتلك هي الحيلة التي يلجأ إليها كل مغلوب في الحجة

(١) سورة الإسراء (٨٨).

(٢) سورة البقرة (٢٤).

(٣) لو قال «وما اسطاعوا له نقباً» لكان أجود.

والبرهان، وكل من لا يستطيع دفعاً عن نفسه بالقلم واللسان[1].

«لم يكن إلا أن تحداهم أن يأتوا بكلام مثل الذي جاءهم به؟ ألم يكن ذلك أقرب إليهم وأبقى عليهم لو كان أمره في يديهم؟ ولكنهم طرقوا الأبواب كلها إلا هذا الباب (وهو تحدي القرآن أن يأتوا بمثله)، وكان القتل والأسر والفقر والذل كل أولئك أهون عليهم من ركوب هذا الطريق الوعر الذي دلهم عليه[2]. وهو أن يأتوا بمثله.

«إنهم أحسوا في القرآن قوة غلابة، وتياراً جارفاً يريد أن يبسط سلطانه حيث يصل صدى صوته[3]. لقد أصاب الرعب «بلغاء العرب بعد أن استيقنوا بالإعجاز، فأجرَوْا القرآن كله على التسليم حذار أن ينفضحوا إذا انتقدوا فيه شيئاً[4]. فأصبح بلغاء العرب وفصحاؤهم أغفالاً وأحداثاً أمام القرآن، ناشئين وارثين بين يديه.

(١) دراز (٨٣-٨٥).

(٢) دراز (٨٨).

(٣) دراز (٨٨).

(٤) إعجاز القرآن للرافعي (٢٢٥).

• **الإيجاز في اللفظ مع الوفاء بالمعنى**

سمع الأصمعي جارية تنشد شعراً فصيحاً فقال لها: قاتلك اللَّه ما أفصحك!

فقالت: أبعد قول الله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾[1]، فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين؟!

من عجائب القرآن أنه تلتقي عنده نهاياتُ الفضيلة كلها، على تباعد ما بين أطرافها[2].

«إن القصدَ (الإيجاز) في اللفظ والوفاء بالمعنى نهايتان، كل من حاول أن يجمع بينهما وقف منهما موقف الزوج بين ضرتين لا يستطيع أن يعدل بينهما دون ميل ما إلى إحداهما[3]، «رب حرف واحد ينقص من الكلام بقصد الإيجاز يذهب بِمائِهِ ورونقه، ويكسف شمس فصاحته. ورب اختصار يطوي الكلام طياً يُزهق روحه ويُعميِّ

(١) القصص (٧).

(٢) دراز (١٠٨).

(٣) دراز (١٠٩).

طريقه وَيَرُدُّ إيجازه عِياً وألغازاً[١].

«والبلغاء مهما أوجفوا من ركابهم ومهما أجلبوا بخيلهم ورجلهم لا يبلغ الواحد منهم بعمله غاية أمله[٢]. «ولعله لو رجع إليه سبعين مرة لكان له في كل مرة نظرة[٣]. «فتراه يتعقب كلام نفسه في الفينة بعد الفينة يجد زائداً يمحوه وناقصاً يثبته، ويجد فيه ما يهذِّب ويبدِّل وما يقدِّم ويؤخِّر[٤]. «هذا حظ كلام البليغ عند قائله، فما ظنك بناقديه ومنافسيه[٥].

«سل العلماء بنقد الشعر والكلام: هل رأيتم قصيدة أو رسالة كلها أو جلها معنىً ناصعاً، ولفظاً جامعاً، ونظماً رائعاً؟ لقد أجمعت كلمتهم على أن أبرع الشعراء لم يبلغوا مرتبة الإجادة إلا في أبيات محدودة، من قصائد معدودة. وكان لهم من وراء ذلك المتوسط والرديءُ، والغث والمستكره. وكذلك قالوا في الكُتاب والخطباء، والأمر فيهم أبين.

(١) دراز (١٠٩).

(٢) دراز (١١٠).

(٣) دراز (١١٠).

(٤) دراز (١١٠).

(٥) دراز (١١١).

فإن سرك أن ترى كيف تجتمع هاتان الغايتان (قصد وإيجاز في اللفظ ووفاء بالمعنى) على تمامها بغير فترة انقطاع فانظر حيث شئت من القرآن الكريم تجد بياناً قد قدِّر على حاجة النفس أحسن تقدير، فلا تُحس فيه بتخمة الإسراف ولا بمخمصة التقتير، يؤدي لك من كل معنى صورةً نقيةً وافيةً؛ نقية لا يشوبها شيء مما هو غريب عنها؛ وافية لا يشذ عنها شيء من عناصرها الأصلية ولواحقها الكمالية؛ كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه.

فالقرآن في كل جملة منه جهاز من أجهزة المعنى، وفي كل كلمة منه عضو من أعضائه، وفي كل حرف منه جزء بقدره. وفي أوضاع كلماته من جُمله وأوضاع جُمَلِه من آياته سرُّ الحياة الذي ينتظم المعنى بأدائه. وبالجملة ترى كما يقول الباقلاني: محاسن متوالية، وبدائع تترا[١].

(١) دراز (١١٢).

• الإحكام في اختيار ألفاظه

سمع أعرابي رجلاً يقرأ آية (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ). فقال: ما هذا بكلام الله! فأجابه القارئ: ويحك! اتق الله، هذا كلام الله. فقال الأعرابي: اقرأ ثانية. فقرأ القارئ ولكنه قال: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. فقال: صدقت، هذا كلام الله، عَزَّ فحكم فقطع.

فكتاب الله «لو نُزِعت منه لفظة ثم أدير لسانُ العرب لفظةً أحسن منها لم توجد»[١]. بل هو كما وصفه الله تعالى ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[٢].

«رب كلمة تراها في موضع ما في الشعر أو النثر كالخرزة الضائعة، ثم تراها بعينها في كلام الله كالدرة اللامعة»[٣]. «لو أن آية منه جاءتك في جمهرة من أقوال البلغاء لدلت على مكانها وتميزت من بينها كما يتميز اللحنُّ الحساس بين ضروب الألحان؛ أو الفاكهةُ الجديدةُ بين ألوان الطعام»[٤].

(١) ابن عطية، راجع الإتقان (٢/١٥١-١٥٢).

(٢) هود (١)، دراز (١١١-١١٢).

(٣) دراز (٩١).

(٤) دراز (٩٤).

«فالجديد في لغة القرآن أنه في كل شأن يتناوله من شؤون القول يتخير له أشرف المواد، وأمسَّها رَحِماً بالمعنى المراد، وأجمَعها للشوارد، وأقبَلها للامتزاج، ويضع كل مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحق بها وهي أحق به... بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا مرآته الناصعة وصورته الكاملة، ولا يجد اللفظُ في معناه إلا وطنَه الأمين وقراره المكين؛ لا يوماً أو بعض يوم، بل على أن تذهب العصور وتجيئ العصور، فلا المكان يريد بساكنه بدلاً، ولا الساكن يبغي عن منزله حولاً.. ومن حيث الجملة يجيئك من هذا الأسلوب بما هو المثل الأعلى في صناعة البيان[1].

(١) دراز (٩٢).

- **من عجائبه خطاب العامة وخطاب الخاصة**

لقد استمتع أسياد قريش وشيوخهم وشبابهم ومراهقوهم بسورة النجم لما قرأها النبي ﷺ على الملأ؛ إذ قام النبي ﷺ يصلي عند الكعبة وخلفه مجموعة قليلة من أصحابه المؤمنين الضعفاء، فابتدأ بسورة النجم ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾[1] وجهر بها، وسادة قريش في نواديهم ومجالسهم حول الكعبة. فأخذوا يستمعون للنبي ﷺ وهو يقرأ، وهو يذكر آلهتهم ذكراً قبيحاً ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٢٣﴾[2] إلى أن قرأ متوعداً إياهم ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ۝٥١ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝٥٢ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦﴾[3] وما زالوا يستمعون، بل زادهم شوقاً وخوفاً ورهبة، واستمر النبي ﷺ يقرأ ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠

(١) النجم (١).
(٢) النجم (١٩- ٢٣).
(٣) النجم (٥٠- ٥٦).

وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ﴿٦٢﴾﴾[1] فَخَرَّ النبي ﷺ ساجداً، فَخَرَّ الصحابة سُجَّدًا، فقامت قريش جميعها بساداتها وأشرافها وعظمائها فسجدوا لله تعالى إجلالاً للقرآن وتعظيماً له، فلم يملكوا من أنفسهم شيئاً إلا رجلاً واحداً أَنِفَ من السجود له ولكنه لم يتمالك، فلسان حاله يقول: إذا أنف الجسد من السجود له فلأذلن الجبهة لهذا الكلام العظيم، فأخذ حفنة من التراب وجعلها على جبهته تعظيماً وإجلالاً له.

«خطاب العامة وخطاب الخاصة؛ هاتان غايتان متباعدتان عند الناس. فلو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذي تخاطب به الأغبياء لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب. ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والإشارة التي تخاطب بها الأذكياء لجئتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم. فلا غني لك- إن أردت أن تعطي كلتا الطائفتين حظها كاملاً من بيانك - أن تخاطب كل واحدة منهما بغير ما تخاطب به الأخرى، كما تخاطب الأطفال بغير ما تخاطب به الرجال. فأما جملة واحدة تُلقى إلى العلماء والجهلاء؛ وإلى الأذكياء والأغبياء؛ وإلى السُوقة والملوك فيراها كلٌّ منهم مُقَدَّرة على مقياس عقله وعلى وفق حاجته فذلك ما لا تجده على أتمه إلا في القرآن الكريم. فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوفىٰ كلام بلطائف

---

(١) النجم (٥٧-٦٢).

التعبير، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم لا يلتوي على أفهامهم، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان فهو متعة العامة والخاصة على السواء، ميسر لكل من أراد ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾[1].

- **جمع بين إقناع العقل وإمتاع العاطفة**

روى ابن اسحاق أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق خرجوا ذات ليلة ليستمعوا من رسول ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه- وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: «لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً»، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا. وكذا في الليلة الثالثة، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا.

إنه متعة وجدانية وإقناع عقلي.

(١) القمر (١٧). دراز (١١٣).

«إن الذي ينهمك في التفكير تتناقص قوة وجدانه وعاطفته، والذي يقع تحت تأثير لذة أو ألم يضعُف تفكيره. وهكذا لا تقصد النفسُ الإنسانية إلى إقناع العقل وإمتاع العاطفة معاً إلا كانت مقبلة مدبرة معاً.

فلا تجد أسلوباً واحداً يتجه اتجاها واحداً ويجمع في يديك هذين الطرفين معا، ذلك ما لا تظفر به في كلام بشر، فَمَنْ لَكَ إذاً بهذا الكلام الواحد الذي يجيء من الحقيقة البرهانية الصارمة بما يُرضي حتى أولئك الفلاسفة المتعمقين؛ ومن المتعة الوجدانية الطيبة بما يرضي حتى هؤلاء الشعراء المرحين؟ ذلك الله رب العالمين ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾[(١)].

«لقد ملك القرآن سر هذه الفصاحة، وجاءهم منها بما لا قبل لهم برده، ولا حيلة لهم معه»[(٢)]. «فكانوا يفرون منه في كل وجه ثم لا ينتهون إلا إليه»[(٣)].

---

(١) الزمر (٢٣)، دراز (١١٥).

(٢) الإعجاز للرافعي (١٥٩).

(٣) الرافعي (١٦٠).

- **جمع بين البيان والإجمال**

«جاء الوليد بن المغيرة إلى رسول الله ﷺ، فلما قرأ عليه القرآن كأنه رق له. فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال له: ياعم! إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً لتتعرض لما قِبَله. قال الوليد: لقد علمت قريشٌ أني من أكثرها مالاً. قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له وكاره. قال: وماذا أقول؟ فوالله مافيكم رجل أعلم مني بالشعر لا برَجَزِه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن. والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمنير أعلاه، مشرق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى، وإنه ليحطم ما تحته[(١)].

فألح أبو جهل على الوليد وقال له: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. فقال الوليد: دعني أفكر. فلما فكر قال: هذا سحر يأثره عن غيره. وفي ذلك نزل قوله تعالى ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأَيَـٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ

(١) الحديث رواه الحاكم (٢/ ٥٠٦-٥٠٧) عن ابن عباس وقال صحيح على شرط البخاري. والأرجح عن عكرمة مرسلاً، انظر من روائع القصص (٤٠-٤١).

﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾(١) فانظر للجهد العنيف الذي بذله الرجل في إصدار حكمه. . . حيث يقول إنه فكر وقدر، ثم نظر، ثم عبس وبسر، ثم أدبر واستكبر. ومعنى هذا كله أنه كان يقاوم فطرته، ويستكره نفسه على مخالفة وجدانه، وأنه كان في حيرة وضيق بما يقول. . . وأخيراً استطاع أن يقول ما قال نزولاً على إرادة قومه. وانظر الفرق بين هذا الحكم المصطنع وبين حكم البديهة العربية في قوله أول مرة: إنه يعلو وما يعلى، وأنه يحطم ما تحته(٢).

وهذه عجيبة أخرى تجدها في القرآن ولا تجدها فيما سواه. ذلك أن الناس في تعبيرهم إذا عمدوا إلى تحديد أغراضهم لم يتسع لمعنى آخر. وإذا أبهموها أو عمموها ذهبوا إلى الإبهام أو

الإلباس أو إلى اللغو الذي لا يفيد، ولا يكاد يجتمع لهم هذان الطرفان في كلام واحد.

«تقرأ القطعة من القرآن فتجد في ألفاظها من الشفوف والملاسة والإحكام والخلوّ من كل غريب عن الغرض ما يتسابق به مغزاها إلى

(١) المدثر (١١-٢٥).
(٢) دراز (٩٢-٩٣).

نفسك دون كدٍّ خاطر ولا استعادة حديث، كأنك لا تسمعُ كلاماً ولغات بل ترى صوراً وحقائق ماثلة. وهكذا يخيل إليك أنك قد أحطت به خُبرا ووقفت على معناه محدوداً. هذا ولو رجعت إليه كرة أخرى لرأيتك منه بإزاء معنى جديد غير الذي سبق إلى فهمك أول مرة، وكذلك... حتى ترى للجملة الواحدة أو الكلمة الواحدة وجوهاً عدة كلها صحيح أو محتمل للصحة، كأنما هي فصٌّ من الماس يعطيك كلُّ ضلع منه شعاعاً فإذا نظرت إلى أضلاعه جملة بهرتك بألوان الطيف كلها فلا تدري ماذا تأخذ عينك وماذا تدع. ولعلك لو وَكَلْتَ النظر فيها إلى غيرك رأى منها أكثر مما رأيت. وهكذا تجد كتاباً مفتوحاً مع الزمان يأخذ كلٌّ منه ما يُسّر له، بل ترى محيطاً متراميَ الأطراف لا تحدّه عقولُ الأفراد ولا الأجيال[1]. من أجل ذلك قال فيه الوليد ما قال من العظمة.

---

(١) دراز (١١٧-١١٨).

- **من عجائب القرآن**

روى الأصمعي قول أحدهم: «كفاك من الشعراء أربعة»، فذكر منهم الأعشى وقال فيه: «والأعشى إذا طرب صَنَّاجَةُ[١] العرب». أي: شعره يطرب. وهو من الطبقة الأولى، وكان أهل الكوفة يقدمون الأعشى. وكان أبو عمرو بن العلاء القارئ يقول عن الأعشى: مثله مثل البازي يضرب كبير الطير وصغيره.

وقال عبدالملك بن مروان لمؤدب أولاده: أدبهم برواية شعر الأعشى. قال المفضل الضبي: من زعم أن أحداً أشعر من الأعشى فليس يعرف الشعر. قال يحيى بن الجون العبدي: أعشى قيس أستاذ الشعراء في الجاهلية. وسئل حمّاد: من أشعر الناس؟ فقال: ذلك الأعشى صناجها[٢].

لما سمع صناجة العرب الأعشى بالنبي ﷺ وبالقرآن خر قلبه ساجداً لبلاغة القرآن وعظمته، فرحل إلى النبي ﷺ في آخر عمره فمر بمكة فسأله كفار قريش عما يريد من مجيئه مكة.

قال: جئت إلى محمد ﷺ.

(١) الصاج والصناج آلة العزف.

(٢) قول على قول (١٩٢/١).

قالوا له: إنه يحرم الزنا والخمر والقمار.

فقال: أما الزنا فقد تركني ولم أتركه، وأما الخمر فقد قضيت منها وطراً، وأما القمار فلعلي أصيب منه عوضاً.

وصنع قصيدة يمدح فيها الرسول ﷺ [(١)].

ويقال إن النابغة نظر إلى لبيد -وهو صبي- بين أعمامه على باب الملك النعمان بن المنذر فقال له: إن عينيك لعينا شاعر، أَفَتَقْرِض الشعر؟

قال: نعم.

قال فأنشدني.

فأنشده.

فقال له النابغة: اذهب فأنت أشعر العرب[(٢)].

وقال أبو زيد القرشي: لبيد أفضلهم في الجاهلية والإسلام.

لما سمع لبيد القرآن بهره بيانه وفصاحته، فتكلف في الإعراض عنه ولكن لم يتمالك قلبه أن خضع له فأسلم.

(١) قول على قول (١/٦١).

(٢) قول على قول (١/١٩٢).

فقال له عمر رضي الله عنه: أنشدني من شعرك.

فقرأ لبيد سورة البقرة وقال: ما كنت لأقول شعراً بعد أن علمني الله سورة البقرة[(١)].

وقال المغيرة بن شعبة للبيد: أنشدني الشعر.

فقال لبيد: أبدلني الله بذلك سورة البقرة وآل عمران.

لقد كانت الخنساء أشعر النساء، وقال لها النابغة: أنت أشعر من كل امرأة.

وسُئِل جرير: من أشعر الناس؟

قال: أنا؛ لولا هذه الخنساء[(٢)].

فلما سمعت القرآن أذعنت وخضعت لعظمته فأسلمت.

لذا لما أسلم عكرمة بن أبي جهل كان يجعل القرآن على وجهه ويقول: «هذا كلام ربي».

أي كيف كنت غافلاً عنه؟!

(١) قول على قول (١/١٨٧).
(٢) قول على قول (١/١٩٣).

إن المرء «كلما ازداد بصيرةً بأسرار اللغة وإحساناً في تصريف القول وامتلاكاً لناصية البيان ازداد بقدر ذلك هضماً لنفسه وإنكاراً لقوته وخضوعاً لكليته أمام أسلوب القرآن. وهذا قد يبدو لك عجيباً أن يزداد شعور المرء بعجزه عن الشيء بقدر ما تتكامل فيها قوتُه ويتسع بها علمُه. ولكن لا عجب، فتلك سنة الله في آياته لا يزيدك العلم بها والوقوف على أسرارها إلا إذعاناً لعظمتها وثقة بالعجز عنها. ولا كذلك صناعات الخلق، فإن فضل العلم بصناعات الخلق يمكنك منها ويفتح لك الطريق إلى الزيادة عليها»[1] لذا خر كبار الشعراء خضوعاً وسجوداً لعظمة القرآن كما خر السحرة لما رأوا من الخوارق على يد نبي الله موسى عليه السلام.

- **ذوق العرب البلاغي**

للعرب تذوق خاص وحساسية مفرطة للفروق اللغوية ودلالاتها البلاغية، يستمعون إليها استماع الناقد المتذوق.

- **حسان بن ثابت رضي الله عنه والنابغة**

لما عرض حسان بن ثابت قصيدته على البلغاء في سوق عكاظ مادحاً قومه وشجاعتهم وعراقة أصولهم فأنشدها:

---

(١) دراز (٨١).

لنا الجفنات الغُرُّ يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدةٍ دمًا
ولدنا بني العنقاء وابْنَي مُحَرِّقٍ فأكرم بنا خالًا وأكرم بنا ابنما

فقالت الخنساء: ضعَّفت افتخارَك وأنزرتَه (قللته) في ثمانية مواضع.

قال: وكيف؟

قالت: قلت: «لنا الجفنات» والجفنات ما دون العشر فقللت العدد، ولو قلت: «الجفان» لكان أكثر.

وقلت: «الغر» البياض في الجبهة، ولو قلت: «البيض» لكان أكثر اتساعاً.

وقلت: «يلمعن» واللمع شيء يأتي بعد الشيء، ولو قلت: «يشرقن» لكان أكثر لأن الإشراق أدوم من اللمعان.

وقلت: «بالضحى» ولو قلت: «بالعشية» لكان أبلغ في المديح لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً.

وقلت: «أسيافنا» والأسياف دون العشر، ولو قلت: «سيوفنا» كان أكثر.

وقلت: «يقطرن» فدللت على قلة القتل، ولو قلت: «يجرين»

لكان أكثر لانصباب الدم. وقلت: «دماً» والدماء أكثر من الدم.

وفخرت بمن ولدت ولم تفتخر بمن ولدوك![1].

وقيل: إن النابغة الذبياني هو الذي انتقده بما سبق، «وقيل بأن حساناً رد عليه فقال: والله لأنا أشعر منك ومن أبيك[2].

وأجاب بعضهم بأن قول حسان أبلغ وزيف قول النابغة[3].

- **استنوقْتَ الجمل**

لقد شاع النقد بين العرب وبين بلغائها، فهذا الشاعر الجاهلي المسيب بن علس ينشد:

وقد أتناسى الهم عند احتضاره ... بناج عليه الصيعرية مكدم

الصيَّعرية: وسم في عنق الناقة.

المكدم: الفحل الغليظ الصلب.

أي أنه يتناسي همومه بأسفاره التي يندفع بها مغامراً مستبسلاً على بعير قوى ناجٍ راكبه.

(١) إعجاز القرآن للرافعي (٢٢٥).

(٢) سوق عكاظ (١٨٥).

(٣) خصائص التركيب د. محمد أبو موسى (ص ١٥).

لما سمع الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد هذا البيت قال للمسيب منتقداً: «استنوقت الجمل». أي أنك وصفت البعير الذكر بوصف الناقة.

فكان لهم ذوق دقيق في الفهم والنقد[١].

- **ابن هرمة**

روي أن رجلاً قال للشاعر ابن هرمة: ألست القائل

بالله ربِّك إن دخلت فقل لها هذا ابنُ هرمة قائماً بالباب؟

ابن هرمة: لم أقل «قائماً»، أكنت أتسول؟

الرجل: «قاعداً بالباب».

ابن هرمة: أفكنت أبول؟

الرجل: فماذا؟

ابن هرمة: واقفاً بالباب. وليتك علمت ما بين هذين من قدر اللفظ والمعنى[٢].

(١) خصائص التركيب د. محمد أبو موسى (١٦).
(٢) الصناعتين (٦٦)، أسس النقد الأدبي: د. أحمد بدوي (٤٥٢).

- **ذوق النبي ﷺ البلاغي**

قال البراء بن عازب رضي الله عنه: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله علمني عملاً يدخلني الجنة. فقال: لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة، اعتق النسمة وفك الرقبة.

فقال: يارسول الله أوليستا بواحدة؟

قال ﷺ: لا. إن عتق النسمة أن تفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في عتقها(١).

ففرق النبي ﷺ بين عتق النسمة وفك الرقبة بالرغم من ظن الأعرابي أنهما سواء.

وكذا لما علَّم النبي ﷺ البراء بن عازب رضي الله عنه دعاء النوم وفيه: «آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت» أعاد البراء رضي الله عنه هذا الدعاء على النبي ﷺ وقال: «آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبرسولك الذي أرسلت». قال له النبي ﷺ: «لا. ونبيك الذي أرسلت»(٢).

---

(١) رواه أحمد (٢٩٩/٤) بسند صحيح.

(٢) رواه البخاري (٦٣١١).

«فلم يقبل من البراء وضع رسول بدل نبي، وما ذلك إلا لاختلاف مدلولهما الدقيق وإن بدا لبعض الناس أنهما بمعنى واحد[1]. ذلك لبلاغة النبي ﷺ ومعرفته ﷺ بالفروق اللغوية للألفاظ ومدلولاتها، كيف لا وهو أفصح العرب وأبلغهم.

- **علم المتشابه**

من عجائب ما جاء في كتاب الله تعالى كثرة هذه الفروق اللغوية عندما تتكرر القصة أو يتكرر الموضوع في مواضع شتى. فترى فيها شيئاً من الاختلاف إما بالألفاظ أو بالأسلوب، أو بزيادة أو نقصان، أو تقديم أو تأخير، أو بسط أو اختصار مما يثير التساؤلات في قلب قارئه والناهل من كنوزه والمتذوق لحلاوته.

وقد ألف مجموعة من العلماء في القديم والحديث في الفروق اللغوية في كتاب الله تعالى والحِكَم الجليلة من وراء هذا الاختلاف والتشابه.

ولكن ربما يتبادر إلى القلب:

كيف يستطيع المتدبر أن يحصل -بإذن الله تعالى- على المِلاك

(١) الفروق اللغوية: د. محمد الشايع (٨٧).

والقوام والعمدة في استنباط الحِكَم والفوائد من هذه الفروق اللغوية في الآيات المتشابهة؟

فاستعنت بالله تعالى فجمعت بحمد الله وفضله جملة من الطرق والمفاتيح لتحقيق هذا المراد مع ضرب بعض الأمثلة.

ولا حرج في ذلك فقد كان ابن عباس رضي الله عنهما يكثر من كشف معاني القرآن بوسائل عدة، لذا كان علي رضي الله عنه يثني على ابن عباس رضي الله عنهما ويقول: «كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق».

وهذا النهج أطبق عليه السلف والخلف بضوابط التفسير الإشاري المذكورة في مؤلفات علوم القرآن. وهذه الإشارات مما ضمنته العرب في أساليبها وكلامها، ويدخل فيما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله»[١].

(١) رواه ابن جرير (٢٦/١) من طريق مؤمل بن إسماعيل عن سفيان عن أبي الزناد عن ابن عباس. وهذا سند ضعيف حيث لم يسمع أبو الزناد من ابن عباس، ومؤمل بن إسماعيل سيء الحفظ. ورواه من طريق الكلبي عن أبي صالح مولى أم هانئ عن ابن عباس. وهذا إسناد ساقط بمرة، أبو صالح باذام ضعيف لا سيما في رواية التفسير ولم يسمع من ابن عباس، وإذا روى عنه الكلبي فليس بشيء. والكلبي هو محمد ابن السائب متهم بالكذب.

- **وقبل البدء في بيان هذه الطرق والمفاتيح أنبه القارئ إلى أمرين اثنين:**

أولهما: أحببت أن يعيش القارئ أحوال العرب البلاغية عند نزول القرآن ومدى اهتمامهم بالانتقاء الدقيق للألفاظ والتي قد تبدو مترادفة بالرغم من وجود فروق دقيقة بينها في المعنى. لذا ذكرته في فصل توطئة لموضوع الكتاب، وقد استللت جل مادة التوطئة من كتاب النبأ العظيم لمؤلفه د. محمد عبدالله دراز، وكذا من كتاب إعجاز القرآن لمصطفى صادق الرافعي رحمهما الله تعالى، وغيرهما.

ثانيهما: قد يجد القارئ أن هذا الكتيب أغفل بعض الطرق التي ذكرها بعض العلماء، منها ترتيب السور في المصحف وأثره على الاختلاف في الآيات المتشابهة. والصحيح أن ذلك غير مؤثر لأن في مقدمة المصحف سوراً مدنية، وقد نزلت الآيات المكية قبل المدنية وكانت تشتمل على تلك البلاغات.

وكذا أغفل مراعاة الروي وهي الأحرف التي تنتهي بها الآيات. والصحيح أن حروف الروي هي في نفسها من الفروق التي ينبغي البحث عن حكمتها، والله أعلم.

وإليك طرق تحصيل الملاك لاستنباط حكم وفوائد الفروق اللغوية في الآيات المتشابهة كما وردت في هذا الكتاب الذي بين يديك، وهي معرفة:

١- معاني المفردات.

٢- مقصد السورة.

٣- المخاطب.

٤- المتكلَّم عنه.

٥- المتكلِّم.

٦- المناسبة المعنوية للسياق.

٧- ما سبقها من الآيات.

٨- ما بعدها من الآيات.

٩- الحوادث وأسباب النزول.

وربما ما لم يرد إلى قلبي من الطرق أكثر مما جمعته في هذه الرسالة، فأسأل الله تعالى السِّداد والسَّداد. فما فيها من خير فهو

فضل محض من الله تعالى، وليس عند جامعها إلا الذنوب ورجاء عفوه والافتقار إلى رحمته، إنه ولي ذلك والقادر عليه، والله أعلم.

عدنان عبدالقادر

ربيع آخر ١٤٢٩هـ

دولة الكويت

١- معاني المفردات

قبل البحث عن سر الفروق في الألفاظ بين الآيات المتشابهة والحكمة منها لا بد من معرفة معاني المفردات المختلفة التي وردت فيها، حينئذ يسهل التوصل إلى الحكمة والبلاغة بإذن الله تعالى.

وإليك بعض الأمثلة:

أ- العام والسنة

قال الله تعالى عن نبيه نوح عليه السلام: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾[١] ففرق المولى جل وعلا بين السنة والعام، فذكر لبثه فيهم **بالسنة** ومفارقته لهم **بالعام** فلم يقل سبحانه: [إلا خمسين سنة] وذلك لعدة حكم، منها:

أولاً: **السنة** في اللغة كثيراً ما تستعمل في الحول الذي يكون فيه الشدة والجدب[٢] وانقطاع المطر أو قلته. «لذا يعبر عن الجدب

(١) العنكبوت (١٤).

(٢) الراغب في المفردات (٣٥٤) .

بالسنة»[١] مما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾[٢] أي أصبناهم بالشدة وانقطاع المطر وقلة الثمار والنبات.

فالسنة تستعمل في الأحوال الشديدة المتعبة المثقلة والتي قد يصاحبها كثير من المصائب منها قول الله تعالى عن يوم القيامة: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[٣] لكثرة المصائب والأهوال التي فيه إذ «بيَّن المشقة فيه بأنه قال ﴿سَنَةٍ﴾ ولم يقل عاماً، وبين أنه يكون طوله على الكافر باعتبار ما يلحقه من الغم لشدة المخاوف[٤].

وقال سبحانه عن بني إسرائيل والأرض المقدسة: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[٥]، أي يتيهون في سيناء مع قلة المطر والنبات وكثرة المصائب، «ويحتمل أن يكون تيههم بافتراق الكلمة وقلة اجتماع الرأي، وأن الله رماهم بالاختلاف.. فتفرقت منازلهم.. وينتقلون من موضع إلى موضع

(١) الراغب في المفردات (٣٥٤) .
(٢) الأعراف (١٣٠).
(٣) المعارج (٤).
(٤) نظم الدرر للبقاعي (٨/ ١٤٦) بتصرف.
(٥) المائدة (٢٦).

على غير نظام واجتماع[١]، «فلا يهتدون إلى طريق ولا يبقون مطمئنين[٢].

وقال جل وعلا عن نبي الله يوسف عليه السلام: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾[٣] لما قاساه من ألم الظلم لسجنه. وعن السنوات التي فيها عملهم الدؤوب في الزراعة والحرث وعدم الاستمتاع في المأكل قال لهم: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾[٤] «دائبين مجتهدين[٥] ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾[٦] «أي دبروا أكلكم في هذه السنين الخصبة وليكن قليلاً[٧]، فعمل كثير مجهد وأكل قليل.

ثانياً: أما **العام** فيستعمل في الأحوال التي يعم «فيها الرخاء والخصب[٨]. ومما يدل عليه قول الله تعالى في العام الذي فيه الغوث في زمن يوسف عليه السلام: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ

(١) المحرر الوجيز (٥٣١).
(٢) تفسير السعدي (٢٧٧).
(٣) يوسف (٤٢).
(٤) يوسف (٤٧).
(٥) البقاعي (٤/٥٢).
(٦) يوسف (٤٧).
(٧) السعدي (٥٣٣).
(٨) المفردات للراغب (٣٥٤).

ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾[١]. «إشارة إلى أنه يكون فيه من السعة بعموم الري وظهور الخصب وغزير البركة أمر عظيم[٢] «وفيه تكثر الأمطار والسيول وتكثر الغلات وتزيد على أقواتهم حتى إنهم يعصرون العنب ونحوه زيادة على أكلهم[٣].

وفي الحول الذي يشعر العرب فيه بالأمان يحلون الشهر الحرام فيجعلونه شهر حلال لا شهر حرام، ثم يحرمونه في العام الذي بعده قال الله تعالى: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾[٤] «عبر عن الحول بلفظ يدور على معنى السعة إشارة إلى أنهم يفعلونه ولو لم يضطرهم إلى ذلك جدب سنة ولا عض زمان، بل بمجرد التشهي[٥].

ثالثاً: أما الآية المذكورة فقد لبث نبي الله نوح عليه السلام في قومه يدعوهم ليل نهار «لا يني بدعوتهم ولا يفتر في نصحهم؛ يدعوهم ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، فلم يرشدوا ولا اهتدوا بل استمروا على كفرهم وطغياهم[٦]. واستعمل كل الوسائل بالرغم من السخرية

(١) يوسف (٤٩).
(٢) البقاعي (٤/ ٥٣).
(٣) السعدي (٥٣٣).
(٤) التوبة (٣٧).
(٥) نظم الدرر (٣/ ٣٠٩).
(٦) السعدي (٨٦٥).

والاستهزاء والتهديد من قبل قومه، فكانت سنوات متعبة مرهقة مثقلة بالهموم والأكدار والأحزان بسبب جواب قومه له وكفرهم وسخريتهم فقال تعالى: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ «عبر بلفظ **سنة** ذماً لأيام الكفر[(١)]. و«لما قاساه[(٢)].

«فلما كان عمر نوح عليه السلام مشتملاً على ما قاساه من أذى قومه وشدائد تعذيبهم له وصبره عليهم حسن تفسير عمره بالسنة، وأما الخمسون الناقصة من الألف فإنه لم يكن فيها شيء من الأذى والشدائد ففسر عددها بالعام[(٣)]. إذ لما أهلكهم الله تعالى عم الإيمان والخير على الأرض فقال: ﴿إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ «إشارة إلى زمان حياته عليه السلام بعد إغراقهم كان رغداً واسعاً حسناً بإيمان المؤمنين وخصب الأرض[(٤)]. «فاستراح منهم وبقي في زمن حسن[(٥)] مما بقي له من حياته.

رابعاً: لم يقل سبحانه [تسعمئة وخمسين] لأن ذكر الأَلْف «أفخر وأفضى إلى المقصود إذ في ذكر الأَلْف عرض «لما ابتلى به نوح من

(١) نظم الدرر للبقاعي (٥/٥٤٣).
(٢) حاشية الشهاب (٧/٣٣٨). روح المعاني (٢٠/١٤٣).
(٣) الروض الريان (٢/٣٠٦).
(٤) نظم الدرر (٥/٥٤٣).
(٥) الدر المصون (٩/١٣)، الجمل (٦/٦٢).

أمته وما كابده من طول المصابرة ليكون ذلك تسلية للنبي ﷺ فيما يلقاه من أمته وتثبيتاً له، فإن ذكر رأس العدد الذي هو منتهى العقود وأعظمها أوقع وأوصل إلى الغرض[1]، ألا ترى إلى عروض السلع إذا أردت أن تغري بثمنها تنقص عن المائة ديناراً أو نصفاً، وكذا من الألف فيقال: بتسعة وتسعين ديناراً أو تسعمائة وتسعة وتسعين ديناراً لأن الألف يستطيله السامع فيشعر بأنه مكلف. بينما إذا أعلنت الشركات عن أرباحها تجبر الكسر فتقول ما يقارب المليار أو ربع المليار بينما حقيقة الربح دونه، والله أعلم.

(١) المثل السائر لابن الأثير (٢/٢٨). فتح الرحمن لزكريا الأنصاري (٤٣٦). راجع الروض الريان (٢/٣٠٦-٣٠٧).

ب- الأيكة ومدين

قال الله تعالى في قصة نبيه شعيب عليه السلام: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾(١) فلم يقل سبحانه: [أخوهم شعيب]. بينما ورد في نفس السورة في كل الأنبياء ﴿أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ ﴿أَخُوهُمْ هُودٌ﴾ ﴿أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ﴾ ﴿أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾، ذلك لعدة حكم؛ وللتوصل إليها ينبغي معرفة عدة أمور:

أولاً: إن «أصحاب الأيكة هم أهل مدين(٢) على القول الراجح.

ثانياً: لا بد وأن ينظر إلى المقصود من كلمة **الأيكة** وكلمة **مدين**. أما **مدين** فهو اسم للمدينة التي بعث فيها شعيب عليه السلام. فهو أخوهم في الانتساب إلى المدينة، كأن تقول للكويتيين: أخوكم الكويتي فلان فعل كذا، وتقول للمصريين: أخوكم المصري فلان فعل كذا.

وقيل: **مدين** اسم الجد الأعلى للقبيلة، فنبي الله شعيب عليه السلام

(١) الشعراء (١٧٦-١٧٧).

(٢) تفسير ابن جرير (١٩-٦٥) ورواه عن ابن عباس بسند منقطع. تفسير ابن كثير (الشعراء: ١٧٦)، التحرير والتنوير (١٣/٧١).

أخوهم في الانتساب إلى الجد الأعلى، وهذا متعارف عليه بين الناس وبين أهل القبيلة، لذا قال سبحانه في عاد وهو الجد الأعلى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[1]، وفي ثمود وهو الجد الأعلى قال سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾[2]. لذا إذا ورد اسم **مدين** يقول تعالى: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[3] في كل سور القرآن لأنه أخوهم في الانتساب إلى الجد الأعلى **مدين**.

ثالثاً: أما ﴿ٱلْأَيْكَةِ﴾ فهو اسم للشجرة التي كان يعبدها قوم مدين، وإذا نسب القوم إلى الشرك وإلى ما يعبدونه من دون الله أصبح كل من شاركهم في عبادة الآلهة المذكورة أخاً لهم في الديانة، كأن تقول للمسلمين: أخوكم المسلم فعل كذا، وتقول للنصارى: أخوكم النصراني فعل كذا.

رابعاً: **أما شعيب** عليه السلام فلم يعبد شجرة الأيكة «فلم يكن أخاً لهم في الدين»[4]. بل تبرأ من شركهم وتحداهم إذ قال لهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ

(١) الأعراف (٦٥).
(٢) الأعراف (٧٣).
(٣) الأعراف (٨٥).
(٤) تفسير القرآن لأبي المظفر السمعاني (٤/٦٤).

كَٰذِبٌۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾﴾[١]، ودعاهم إلى عبادة الله وحده، فلا يصلح أن يقال في حقه أنه أخوهم في عبادة الأيكة. فبرأ الله تعالى شعيباً من مشاركتهم في عبادة شجرة الأيكة فقال: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ فليس شعيب أخاهم في عبادة الأيكة.

فتلخص مما سبق أن الله تعالى «لم يقل ها هنا [أخوهم شعيب] لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة وهي شجرة كانوا يعبدونها.. فقطع نسبة الأخوّة بينهم للمعنى الذي نسبوا إليه، وإن كان أخاهم نسباً[٢]، والله أعلم.

(١) هود (٩٣).
(٢) تفسير ابن كثير (الشعراء ١٧٧).

ج- النصيب والكفل

قال الله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ﴾(١) لماذا ورد النصيب في الشفاعة الحسنة بينما ورد الكفل في الشفاعة السيئة؟

أولاً: ينبغي التفريق بين النصيب والكفل لغةً.

النصيب في اللغة أصله من الرفع، ونصب الشيء إذا «رفعه»(٢) وأقامه، وجعله «علامة وعَلَماً»(٣) على الشيء، لذا قالوا: «العَلَم المنصوب»(٤) أي المرفوع. وكانت الأنصاب تجعل علامات تدل على حدود المدينة والبلد فيقال: «أنصاب الحرم أي حدوده»(٥)، لذا تطلق على «الحجارة التي تنصب على رؤوس الجبال الصغيرة وتسمى القور، ليستدل بها»(٦) المسافرون. فإذا رآها المسافرون فرحوا لوصولهم إلى مبتغاهم، فحظوا وفازوا وحصلوا على

(١) النساء (٨٥).

(٢) لسان العرب (٣/٦٤٤/١)، (٣/٦٤٥/١).

(٣) نفس المصدر.

(٤) لسان العرب (٣/٦٤٤/١)، (٣/٦٤٥/١).

(٥) لسان العرب (٣/٦٤٤/٢).

(٦) لسان العرب (٣/٦٤٤/٢).

غايتهم، لذا يطلق النصيب على الحظ[١].

لذا ورد **النصيب** مع الشفاعة الحسنة لأن من شفع شفاعة حسنة يكون له حظ عند الله تعالى، فينصب له حظه ليفرح به إذ الجزاء من جنس العمل لأن المشفوع له كان يرفع بصره ويشرئب بحثاً عن بشرى أو علامة أو نصب يدل على قبول الشفاعة فناسب ذكر النصيب للشافع.

ثانياً: الكفل هو الثقل المحمول من الخلف لذا يطلق على العجز وردف العجز[٢]. ويطلق على الضمين العائل والكفيل الضامن لغيره لأنه حمله وجعله على كاهله. قال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾[٣]. لذا يطلق على من ثقلت عليه الحرب فيكون في آخر الجيش همته الفرار[٤].

فوردت كلمة **الكفل** في الشفاعة السيئة لما يحمل الشفيع السيء من الإثم الذي يثقل كاهله «وما يناله من شدة[٥]. فذوو الشفاعات

(١) لسان العرب (١/٦٤٥/٣).

(٢) لسان العرب (٢٧٨/٣).

(٣) آل عمران (٣٧).

(٤) لسان العرب (٣/ ٢٧٩).

(٥) حاشية الشهاب الخفاجي (٣٢٠/٣). المفردات للراغب (٤٣٦).

السيئة قال الله فيهم: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[1]، فشفاعته السيئة تثقل كاهله وتجره إلى الأسفل إلى نار جهنم أعاذنا الله منها. «فكلمة كفل توحي بأنه متكفل بجرائرها[2] «تغليظاً في الزجر[3]، إذ يكون عليه وزر من ذلك الأمر.

«فلفظ الكفل يشعر بالحمل الثقيل، ولفظ النصيب يشعر بالحظ الذي ينصب طالبه في تحصيله[4].

ثالثاً: وقيل: «بأن النصيب يشمل الزيادة، والكفل هو المثل المساوي. فاختيار النصيب أولاً لأن جزاء الحسنة يضاعف، والكفل ثانياً لأن من جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها، ففي الآية إشارة إلى لطف الله تعالى بعباده[5].

رابعاً: أما ما ورد في قول الله تعالى لمؤمني أهل الكتاب: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾[6] فورد

(١) العنكبوت (١٣).
(٢) في ظلال القرآن (٢/٧٢٥).
(٣) نظم الدرر (٢/٢٩٠).
(٤) ابن القيم في روضة المحبين (٣٤٥-٣٤٦).
(٥) روح المعاني (٥/٩٨). ونحوه في التحرير والتنوير للطاهر عاشور (٥/١٤٤).
(٦) الحديد (٢٨).

كفل مع الرحمة لبيان أنها رحمة ثقيلة عظيمة رجحت كفة ميزان الحسنات على ميزان السيئات ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1]. «فقوله تعالى: ﴿كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي نصيبين ضخمين تحصيناً من العذاب كما يحصن الكفل الراكب من الوقوع، وهو كساء يعقد على ظهر البعير فيلقى مقدمه على الكاهل ومؤخره على العجز[2]. وهذا المدلول مناسب لسياق الآيات السابقة لها من ذكر الميزان وثقل الحديد ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾[3]، والله أعلم.

(١) المؤمنون (١٠٢).

(٢) نظم الدرر (٧/٤٧٠).

(٣) الحديد (٢٥).

د- النون والحوت

ذكر الله تعالى نبيه يونس عليه السلام في سورة الأنبياء وسماه **بـذي النون** فقال سبحانه: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا﴾[1]، بينما سماه في سورة القلم بـ«صاحب الحوت»[2] إذ قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾. فما الحكمة من اختلاف اللقبين لشخص واحد وهو يونس عليه السلام إذ نسب إلى **النون** في **الأنبياء** بينما نسب إلى **الحوت** في **ن**؟ لاسيما وأن اسم السورة **ن** فالأولى ظاهراً أن يسمى بـ [ذي النون]**!**

أولاً: لابد وأن يفرق بين الحوت والنون. فالحوت اسم جنس لجميع أنواع السمك صغيراً كان أم كبيراً «ولا يتقيد بالكبيرة[3]»، كقول ابن عمر رضي الله عنه: «أحلت لنا ميتان الحوت والجراد[4]» أي جميع أنواع السمك، وكما حصل لموسى عليه السلام وفتاه عندما ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾[5] أي السمكة التي معهما في زبيلهم.

بينما النون يطلق على السمك الكبير، ولذا فسر كثير من العلماء

(١) الأنبياء (٨٧).

(٢) القلم (٤٨).

(٣) الجمل (١٥٧/٥).

(٤) صححه البيهقي (٢٥٤/١) والألباني في السلسلة الصحيحة (١١١٨).

(٥) الكهف (٦١).

قول الله تعالى: ﴿نٓ﴾[١] قالوا: «الحوت الكبير الذي دحيت عليه الأرض»[٢] بصرف النظر عن مدى صحة هذا الخبر.

ثانياً: مقصد سورة القلم هو الأخلاق، أي الدعوة إلى التحلي بالأخلاق النبيلة الشريفة. إذ مدح الله تعالى نبيه محمداً ﷺ في هذه السورة بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾[٣]، ونهاه عن سفاسف الأخلاق كالمداهنة والهمز والنميمة والاعتداء والإثم والبخل كقصة أصحاب الجنة.

وكذا نهي في هذه السورة عن مخالفة الأولى وهو من مكملات الأدب «فنهى عن الضجر والعجلة التي وقع فيها يونس عليه السلام»[٤]. فقال له: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾[٥]. فهو مقام لوم وعتاب لنبيه يونس عليه السلام وتحذير. فهذا المقام لا يصلح أن ينسب فيه يونس عليه السلام إلى شيئ عظيم وهو النون فلا يصلح فيه [ولا تكن كصاحب النون]، لأن نسبته إلى شيء عظيم تعظيم في مقام العتاب واللوم وهذا لا يصلح، وإنما الملائم أن ينسب إلى شيء يدخل فيه الصغير زيادة

(١) القلم (١).
(٢) تفسير الماوردي (٤/٢٧٧).
(٣) القلم (٤).
(٤) المحرر الوجيز لابن عطية (١٨٨٨) (سورة القلم).
(٥) القلم (٤٨).

في التوبيخ والعتاب.

وربما هذا الذي فهمه الصحابي لما قال له النبي ﷺ ممازحاً: «إني حاملك على ولد الناقة». فكما يدخل البعير الكبير العظيم في كونه ولداً للناقة فكذا يدخل فيه البعير المولود حديثاً «الحاشي». فالذي خطر في ذهن الصحابي أن المقصود الحاشي فقال: «وما أصنع بولد الناقة؟ فأجابه النبي ﷺ بأنه أراد البعير الكبير، ولكنه ما زال ولداً للناقة، فأمه ناقة ولابد، كبر البعير أم صغر فقال ﷺ: «وهل تلد الإبل إلا النوق[1].

فذكر **الحوت** بدلاً من النون في قوله سبحانه: ﴿كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ فيه إشارة إلى الإعراض والتوبيخ وما يحمل فيه من العتاب، فناسب مقصد السورة.

ومما يؤكد هذا المعنى أن يونس عليه السلام متى ما ذكر في سياق اللوم ذكر معه **الحوت** دون «النون كما في سورة الصافات ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝١٤٢﴾[2].

ثالثاً: أما مقصد سورة الأنبياء فهو إثبات البعث، وأن الأرواح

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٢٦٨) والترمذي (١٩٩٢) وصححه الترمذي والألباني.
(٢) الصافات (١٤٢).

والأجساد والأجسام تحت إمرة الله تعالى إن شاء أماتها وفتت الأجساد وإن شاء أبقاها وأبقى الأجساد. فإذا تعرضت إلى جميع أسباب التمزق وخروج الروح ولكن الله تعالى لم يأذن لها فإنها لا تتمزق ولا تخرج منها الروح، ثم إذا قدر الله لها فتفتتت؛ فالأمر إليه سبحانه إن شاء بعثها وإن شاء لم يبعثها.

فذكر سبحانه قصة يونس عليه السلام الذي التقمه الحوت العظيم الذي لا يشك المرء أن هذا الحوت إذا التهم شخصاً ما فإن جسده سيتمزق في فمه قبل أن يصل إلى جوفه، فهو حوت عظيم لا مفر منه، وليس سمكة صغيرة تقتصر على جرح الجسد، وإنما تلتهمه كله ولا تبقي منه شيئاً فقال في سورة الأنبياء: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ أي الحوت العظيم الذي التقمه. لكن الله تعالى لم يشأ أن يتمزق جسده ولا أن تفيض روحه بالرغم من عدم قدرة يونس على الفرار منه لعظم الحوت وشدة بأسه، لكن الأجساد والأرواح بيد الله تعالى. فناسب تسميته بـ «ذا النون» في سورة الأنبياء بدلاً من [ذا الحوت] لمناسبة مقصد السورة وتصوير الحدث للمتدبر لإثبات قدرة الله على البعث وأن الأرواح بيد الله تعالى إن شاء أخرجها من أجسامها وإن شاء أبقاها، وكذا الأجساد إن شاء مزقها وإن لم يشأ لم تتمزق، وإن تمزقت إن شاء بعثها وإن شاء لم يبعثها، والله أعلم.

هـ- ذو، صاحب

ذكر الله تعالى نبيه يونس عليه السلام في سورة القلم وسماه بـ (صاحب الحوت)[1]. بينما في سورة الأنبياء سماه (ذا النون)[2]. ما الحكمة؟ لماذا أشير إليه في اللقب الأول بـ(صاحب) وفي الثاني بـ ﴿ذَا﴾؟

أولاً: **الصاحب** من الصحبة وهي شدة القرب والالتصاق. فالصحبة تطلق على العشرة لشدة القرب وشدة الالتصاق بينهما، لذا يقال: صاحبه أي «عاشره»[3].

وكذا تطلق الصحبة على شدة الملازمة. «فكل ما لازم شيئاً فقد استصحبه»[4] لذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾[5] لم يقل سبحانه: [وزوجته] فلربما كره المرء زوجته، أو حدثت بينهما جفوة. بينما **صاحبته** زوجته عشيقته الملازم لها التي لا تنفك عنه قلباً وقالباً، الملتصقة به حباً وجسداً «لكونها

(١) القلم (٤٨).

(٢) الأنبياء (٨٧).

(٣) لسان العرب (٤٠٩/٢).

(٤) لسان العرب (٤١٠/٣).

(٥) عبس (٣٤-٣٦).

عديلة روحه في الدنيا . . . لما لها من تمام الوصلة[١]. «فهي ألصق بالفؤاد وأعرق في الوداد[٢]، وبالرغم من ذلك فإنه يفر منها يوم القيامة.

وكذا قال سبحانه عن نفسه: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾[٣] أبلغ من [زوجة] لما تصوره كلمة ﴿صَٰحِبَةً﴾ من صورة ذهنية وتخيلات، عندها يستقبح المرء نسبة الزوجة والولد إلى الله تعالى.

ثانياً: ورد في سورة القلم ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾[٤] حيث وردت الآية في مقام اللوم والعتاب والتحذير مما وقع فيه يونس عليه السلام لما غادر قومه مغاضباً دون إذن من الله تعالى. فلا تفعل فعل يونس عليه السلام الذي بسبب فعله قدرنا عليه أن التقمه الحوت فلازم بطنه مدة طويلة والتصق به التصاقا لا يتوقع أن ينفك عنه ولا يخرج منه إلا برحمة من الله تعالى، فما كان يظن أن يخرج منه، ولا منقذ له من الخلق، ولا يعلم به أحد، ففي عرف الناس أنه قد مات، فإياك أن تقع فيما وقع فيه.

(١) نظم الدرر (١٤٨/٨).
(٢) نظم الدرر (٣٣٣/٨).
(٣) الأنعام (١٠١).
(٤) القلم (٤٨).

ثالثاً: ثم نسبه إلى الحوت ولم ينسبه إلى نفسه سبحانه لما فيه من العتاب واللوم كقولك عن رجل: **هو صاحب فلان،** بالرغم من معرفتك به وقربه منك، كأنك تقول: هو ألصق به. وكذا تقول لآخر: «قل لصاحبك، ما كأن بينك وبينه علاقة بالرغم من وجودها؛ هذا في مقام العتاب واللوم كما قال أخوة يوسف عليه السلام عن بنيامين: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ﴾[1] لم يقولوا [أبانا] لأن أبانا معرضٌ عنا ومقبل على بنيامين، فلشدة التصاقه به وعدم انفكاكه عنه ما كأننا نحن أبناؤه، ما كأن له علاقة بنا.

رابعاً: قولك «صاحب العلم الكثير» ليس كقولك «صاحب العلم القليل». ففي الأولى تعظيم له وفي الثانية تهوين من شأنه. وقولك «صاحب القرآن والأحاديث النبوية» ليس كقولك «صاحب الأغاني». وكذا قولك: «صاحب البيت الكبير والقصر العظيم» ليس كقولك «صاحب البيت ففي الأولى تعظيم له. فالقول [صاحب النون] ليس كقوله سبحانه: ﴿كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾؛ ففي الأولى الإشارة إلى تعظيمه وليس كذلك في الثانية.

خامساً: مما يدل عليه أن سورة **القلم** تسمى بسورة **ن**. فمن المتوقع أن يقال فيها: [ولا تكن كصاحب النون] من باب المشاكلة،

(١) يوسف (٦١).

ولكن عندما أتى ذكر نبي الله يونس ﷺ قال فيه: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ لإظهار قصد اللوم والعتاب. ولله المثل الأعلى؛ كما لو كان أمام مجموعة من المتفوقين ولما سميتهم وابتدأت اسم كل منهم بقولك المتفوق فلان، المتفوق فلان إلا أحدهم وهو متفوق سميته باسمه ولم تسبقه بكلمة «المتفوق» لإظهار الإعراض واللوم.

وتتمة الآية تدل عليه ﴿... وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾[١]. وقارنه بسياق آية الأنبياء ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾[٢].

سادساً: أما **ذو** فإنها تستعمل للوصف كقوله سبحانه عن نفسه ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ﴾[٣]، ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ﴾[٤]، ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[٥]،

(١) القلم (٤٨-٥٠).
(٢) الأنبياء (٨٧-٨٨).
(٣) الأنعام (١٣٣).
(٤) الرعد (٦).
(٥) الذاريات (٥٨).

﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[1]، وفيها تعظيم للموصوف. وكذا قال الله تعالى ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾[2] فهو طعام عظيم يسبب غصة عظيمة، ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾[3] فالأوتاد والأهرامات عظيمة دلت على عظم ملك فرعون، ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾[4] فلا يوجد عنده إلا التراب مما يدل على عظم المسكنة والفقر. ففي قوله تعالى:

﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ فالنون هو السمك العظيم ففيه تعظيم ليونس عليه السلام.

سابعاً: حين ذكر يونس عليه السلام في معرض الثناء عليه قيل: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ ولم يقل: [صاحب النون]، والإضافة **بـ** ﴿ذَا﴾ أشرف من الإضافة **بـصاحب** لأن قولك **ذو** يضاف إلى التابع فتقول: ذو الملك وذو الجلال وذو العرش وذو القرنين، فتجد الاسم الأول **ذو** متبوعاً (أي هو الأصل) وليس تابعاً، وذلك كله تفخيم للمسمى بهذا.

بينما **صاحب** يضاف إلى المتبوع (الأصل)، **فصاحب** تابع وليس أصلاً فتقول: «أبو هريرة رضي الله عنه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم» **فـصاحب** تابع

(١) الرحمن (٢٨).
(٢) المزمل (١٣).
(٣) ص (١٢).
(٤) البلد (١٦).

للرسول ﷺ، ولا تقول: النبي ﷺ صاحب أبي هريرة رضي الله عنه[(١)].
فتستعمل **ذو** للتعظيم.

الخلاصة: «أن ﴿ذَا﴾ أبلغ من [صَاحِب]... لاقتضائها تعظيم المضاف إليها والموصوف بها بخلاف **صاحب**، ومن ثم قال سبحانه في معرض مدح يونس عليه السلام: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾؛ والنهي عن اتباعه: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾، إذ ﴿ٱلنُّونِ﴾ لكونه جعل فاتحة سورة أفخم وأشرف من لفظ [الحوت]»[(٢)]، والله أعلم.

تنبيه: ويدخل في هذا الفصل معاني مفردات الحروف الهجائية وحروف المعاني كأحرف الجر وغيرها.

* * *

(١) الإعلام للسهيلي بتصرف نقلاً عن الدرويش في إعراب القرآن (٣٥٦/٦).
(٢) روح المعاني (٣٧/٢٩).

٢- معرفة مقصد السورة

معرفة الموضوع الذي تدور حوله السورة «مقصد السورة» من أنفع الطرق لمعرفة الحِكَم والأسرار للفروق الواردة في الآيات المتشابهة والقصص المتكررة في السور. وإليك بعض الأمثلة:

أ- الأيكة في سورة الحجر

ورد في سورة الحجر ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾[١] وأصحاب الأيكة هم قوم مدين. فما الحكمة من تسميتهم بأصحاب الأيكة في هذه السورة دون تسميتهم بأصحاب مدين؟

أولاً: سمي أصحاب مدين بأصحاب الأيكة، وأصحاب الأيكة «هم قوم شعيب كانوا يسكنون الغيضة[٢] وفيها «الأيك: وهو الشجر الكثيف الملتف الأغصان»[٣]. «أي أصحاب بقعة الأشجار باعتبار

(١) الحجر (٧٨).

(٢) البيضاوي مع حاشية الشهاب (٥/٥٣٦).

(٣) تفسير ابن جرير (١٩/٦٥)، الجمل نقلاً عن المختار (٤/١٩٥)، حاشية الشهاب (٥/٥٣٦).

إقامتهم فيها وملازمتهم لها وكانت عامة شجرهم»[1].

ثانياً: مقصد سورة الحجر هو حفظ الله تعالى لعباده ولدينه. من تتبعها من أولها إلى آخرها تبين له هذا واضحاً. من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾[2]، ثم قال سبحانه عن السماء: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧﴾[3]، ثم حفظ عباده المخلصين من الشيطان: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[4].

ثالثاً: الأيكة هي الشجرة التي كان يعبدها أصحاب مدين من دون الله تعالى، فهل حفظتهم آلهتهم التي عبدوها من دون الله تعالى؟ لم تحفظهم تلك الآلهة بل كانت سبب هلاكهم ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝٧٨ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾[5]، بينما من وحد الله تعالى حفظه الله. لذا في نهاية السورة بين الله تعالى أنه حافظ لعبده ورسوله محمد ﷺ من أعدائه الكفار: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾[6].

(١) الجمل نقلاً عن الخازن (١٩٥/٤).
(٢) الحجر (٩).
(٣) الحجر (١٧).
(٤) الحجر (٤٢).
(٥) الحجر (٧٨).
(٦) الحجر (٩٤-٩٦).

فتبين أن سبب تسميتهم بأصحاب الأيكة في هذه السورة وهي سورة الحفظ كان لحكمة عظيمة وهي أن المعبودات من دون الله تعالى لا تحفظ عابديها ولا تغني عنهم شيئاً من العقوبة الإلهية، والله أعلم.

ب- إلى فرعون وقومه، وملئه

أرسل الله تعالى نبيه موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه، ولكن الآيات وردت بلفظين مختلفين متقاربين، إذ ورد في سورة النمل ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾[1] وفي سورة القصص ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾[2] فما الحكمة من اختلاف اللفظ في السورتين؟

سورة النمل مقصدها القرآن الذي هو كلام الله تعالى، منَّهُ الله علينا، فكيف نتعامل معه ونتأدب؟! فبدأت السورة ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾[3] وانتهت ﴿وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَ﴾[4].

وهذا الخطاب وهو التأدب مع القرآن موجه لجميع طبقات المجتمع من الشريف إلى الوضيع ومن الحر إلى العبد، فجاء الخطاب لموسى عليه السلام مناسباً لموضوعها ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ والقوم يشمل جميع طبقات المجتمع.

أما سورة القصص فمقصدها أن من علا وتجبر بملكه وسلطانه

(١) النمل (١٢).
(٢) القصص (٣٢).
(٣) النمل (١).
(٤) النمل (٩٢).

كفرعون أو بماله كقارون فإن مصيره الهلاك والاضطراب والخسران. لذا كان جل حديث السورة عن قصتي فرعون وقارون والتعليق عليهما. فالخطاب لعلية القوم بأن الله تعالى سيريهم العقوبة على أيدي الضعفاء المظلومين: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾[١].

فناسب أن يوجه الخطاب لطبقة الأشراف ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ﴾ أي فرعون وعلية القوم «من الرؤساء والكبراء والأتباع[٢] «لأن الملأ أشراف القوم»[٣]، والله أعلم.

(١) القصص (٤-٦).

(٢) تفسير ابن كثير، القصص (٣٢).

(٣) غرائب القرآن (٨٩/١٩)، فتح الرحمن (٤٢٠).

ج- الغلام والولد

قالت مريم عليها السلام في سورة آل عمران: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾[1]، بينما قالت في سورة مريم: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾[2]، فما الحكمة من هذا الاختلاف في السورتين والقصة واحدة؟

إن مريم عليها السلام تكلمت بهذين المعنيين، إذ سألت: أنىَّ يكون لها ولد غلام؟ فذكر في إحداهما جزء من كلامها وفي السورة الأخرى الجزء الآخر. أما إذا أردنا أن نعرف الحكمة من اختيار لفظ خاص لكل سورة فلابد من معرفة الفرق بين الغلام والولد ثم معرفة مقصد كل سورة على حدة.

أولاً: الفرق بين الولد والغلام أن «الولد» في اللغة يطلق على كل مولود ذكراً كان أم أنثى، بينما «الغلام» لا يطلق إلا على الذكر.

ثانياً: مقصد سورة مريم هو المبشرات كما ورد في صدر السورة ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾[3]، وفي آخرها ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[4]. ففيها بيان سعة رحمة الله تعالى بالمؤمنين بما

---

(١) آل عمران (٤٧).

(٢) مريم (٨).

(٣) مريم (٧).

(٤) مريم (٩٧).

سيرسل إليهم من المبشرات المتنوعة حين تكتنفهم الفتن وتحيط بهم وتضيق عليهم الأمور، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى: إن الناس غالباً ما تستبشر بولادة الغلام أعظم من استبشارها بالأنثى، لأن «مادة الغلمة دالة على غاية الكمال في الرجولية[١] هكذا جبل عليه الناس سواء الآباء منهم والأمهات. لذا بشرها جبريل عليه السلام بلفظ الغلام ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ في سورة البشارات[٢] فهو أنسب للبشارة فأجابته: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ بلفظ الغلام الذي خاطبها به إذ «تقدم ذكر الغلام»[٣]. وهي مناسبة ثانية. فناسب ذكر الغلام في سورة المبشرات لما يلازمه من عظيم البشارة عند أغلب الناس.

ثالثاً: بينما سورة آل عمران مقصدها مكانة النبي ﷺ عند الله تعالى «محمد رسول الله» ووجوب متابعته وأنه أفضل البشر وسيد الأنبياء وفخرهم وشرفهم. فإذا قيل بأن عيسى ابن الله - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً- فهو إذاً إله كقول النصارى فكان هذا كافياً في تفضيله على النبي محمد ﷺ، إذ الإله أفضل من المخلوق. فلابد من

(١) نظم الدرر (٥٢٨/٤).

(٢) مريم (١٩).

(٣) فتح الرحمن (٨٧).

نفي هذا المفهوم الخطأ والبيان بأن عيسى عليه السلام ما هو إلا مخلوق ولدته مريم عليها السلام.

والولد فيه إشارة إلى خروجه من موضع الولد وهو في أسفل جزء من البدن، ويصاحب الولادة خروج النجاسات من الدماء وغيرها التي تحيط بالمولود. حينئذ يأنف العاقل أن يقبل أن يكون الإله مولوداً، لأنه يقتضي خروجه من موضع قريب من مخرج البول، بل خرج من مخرج الحيض أسفل البدن، وأحاطت به دماء الوضع المعروف حكمها ومخرجها، أهكذا يكون الإله؟ بل نبي الله عيسى عليه السلام مخلوق كجميع المخلوقات. لذا وردت الآية ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾[(١)] فأكد بأنه مخلوق ﴿**يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ**﴾ ثم ورد بعدها ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾[(٢)].

فإذا تبين أنه مخلوق من البشر جازت حينئذٍ المفاضلة بين نبينا ﷺ وبين عيسى عليه السلام، وجاز أن يفوقه النبي ﷺ لأنه تبين عدم ألوهيته. لذا تمنى أصحابه الحواريون في هذه السورة أن يدركوا النبي محمداً ﷺ وسألوا الله تعالى أن يجعلهم من أتباعه ويكرمهم

(١) آل عمران (٤٧).

(٢) آل عمران (٥٩).

بمعية هذه الأمة إذ قالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ والشاهدون هم أتباع النبي ﷺ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ فكان ﷺ سيد البشر وأفضلهم. فناسب في سورة آل عمران أن يقال فيه ﴿وَلَدٌ﴾ بدل **غلام** لنفي إلهية عيسى عليه السلام، والله أعلم.

د- الشرقي

في سورة مريم قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦﴾[١]. فما فائدة ذكر المكان الشرقي؟ فلو لم يذكر ما اختل المعنى.

إن كتاب الله تعالى ملئ بالحكم الباهرة واليواقيت الزاهرة ولكنها درر كامنة قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[٢]. فكل كلمة في موقعها لو أزلتها أو أزحتها عن مكانها لاختل المعنى.

أما سورة مريم فمقصدها البشارات التي يكرم الله تعالى بها العبد لحظة اشتداد المصائب عليه لذا تكررت فيها كلمة الرحمة التي تدل على البشارات ﴿رَحۡمَتِ رَبِّكَ﴾[٣] ﴿وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ﴾[٤] ﴿مِّن رَّحۡمَتِنَا﴾[٥]، وتكرر اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ فيها ست عشرة مرة. إذ من رحمة الله تعالى أن يكرمك بالبشارات في أحلك المصائب.

(١) مريم (١٦).

(٢) هود (١).

(٣) مريم (٢).

(٤) مريم (٢١).

(٥) مريم (٥٠).

فجُمِع فيها ألوان من البشارات، منها استجابة لدعوة غريبة وهي الرزق بالغلام لشيخ كبير «زكريا عليه السلام» وقد شاخت زوجته التي كانت عاقراً في شبابها. ومنها ذكر اسم جميل يستبشر به ﴿يَحۡيَىٰ﴾[١]. ومنها أن يهيئ الله لك لحظة المصيبة من لا تتوقعه ليهدئ من روعك ويخفف من آلامك وهو مواساة مولود جديد لأمه بصوته الحاني ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي﴾[٢]. ومنها أن يهيئ الله لك من لا تتوقعه ليدافع عنك كما دافع الرضيع عيسى عليه السلام عن أمه لحظة اتهامها ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾[٣]. ومنها انصباب الخيرات عليك صبّاً من كل ناحية عندما تستحكم حلقات المصيبة كما انصب الخير على إبراهيم عليه السلام فبشر برؤية مولوده وحفيده. ومنها أن يخلد ذكرك بخير وبالثناء الحسن كما خلد نبي الله إبراهيم عليه السلام ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾[٤].

ومن البشارات أن تسمع قارئاً وقد احتوشتك الأحزان يقرأ آية من كتاب الله تعالى فيها مواساة لك تحنو عليك وتربت على كتفك وتمسح على ظهرك وتمسح دموع عينيك كأنك أنت المقصود كما

(١) مريم (٧).
(٢) مريم (٢٤).
(٣) مريم (٣٠).
(٤) مريم (٥٠).

سمع موسى عليه السلام كلام الله تعالى بصوته الجميل الذي ملأ الكون بجماله ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾[(١)]. ومنها أن يهيئ الله تعالى لك من يشد عضدك متابعاً لك ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ٥٣﴾[(٢)]. ومنها أن ترى رؤيا منام صادقة أو يراها آخرون فيها بشارة لك ورفعة كرؤيا إبراهيم صلى الله عليه وسلم الذبيح إسماعيل عليه السلام، فصدق إسماعيل ما وعد به أباه من الاستجابة لرؤيا أبيه لذبحه ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾[(٣)].

ومن البشارات ما يلقيه الله تعالى في قلوب الخلق من تعظيمك ومحبتك وكرامتك فيرفع قدرك كما رفع إدريس عليه السلام ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾[(٤)]. وهكذا تتوالى عليك البشارات أيام المصيبة إلى أن تنجلي عنك المصائب.

وإذا علمنا أن النفس تستبشر بالكلام الجميل وتتفاءل به كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أحِب الفأل»[(٥)]. قال الصحابة رضي الله عنهم: «ما الفأل؟» قال

(١) مريم (٥٢).

(٢) مريم (٥٣).

(٣) مريم (٥٤).

(٤) مريم (٥٧).

(٥) رواه مسلم (٢٢٢٣).

ﷺ : «الكلمة الطيبة يسمعها أحدكم»[١] فمن الكلمات الجميلة التي تستبشر بها النفوس كلمة الشروق التي تدل على شروق الخير والبركة بشروق الشمس، فالنفوس تستبشر بالشروق. حينئذ يتبين لنا مناسبة ذكر المولى سبحانه للشروق: ﴿مَكَانًا شَرۡقِيًّا﴾[٢] في سورة البشارات لما فيها من الشروق وقرب انفراج المصيبة. «فكان انفراد مريم في جهة مطالع الأنوار إشارة إلى ما يأتيها من الروح الإلهي»[٣]، والله أعلم.

(١) رواه البخاري (٥٧٥٥) ومسلم (٢٢٢٣).
(٢) مريم (١٦).
(٣) نظم الدرر (٤/ ٥٢٧).

هـ- الغربي

ما فائدة ذكر كلمة ﴿ٱلْغَرْبِيِّ﴾في قوله تعالى في سورة القصص: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾[1]، إذ يغني عنه بدلاً منه أن يقول سبحانه: [بِجَانِبِ الطُّورِ]؟ كما قال سبحانه بعدها: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾، فلماذا خص كلمة ﴿ٱلْغَرْبِيِّ﴾ بالذكر؟

كلمة ﴿ٱلْغَرْبِيِّ﴾ تخدم مقصد السورة. فسورة القصص تتكلم عن أفول نجم طغاة الملك وطغاة المال. فالمتجبر بملكه المعرض عن الله تعالى المتكبر على عباده مصيره الاضطراب والخزي وعدم الاستقرار وزوال ملكه ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾[2].

فأفل ملكه في لحظة واحدة كما لو ألقيت صخرة في البحر ونبذتها فإنك لا تجد لها أثراً إلا موجات خفيفة تضمحل خلال

(١) القصص (٤٤).

(٢) القصص (٤).

ثوان. وهكذا ملك فرعون الذي شيده فيما يزيد على خمسين سنة ذهب في لحظة واحدة وأفل نجمه ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾[(١)].

وكذا قارون الذي مازال يجمع ماله عقوداً من السنين هلك في ساعة واحدة ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾[(٢)]، هكذا أفل نجم صاحب الثروة في ثوان.

فالغروب هو انحطاط الشمس وغيابها وذهابها وانصبابها إلى الأسفل، وهكذا غرب وأفل نجم أولئك، فناسب اختيار كلمة ﴿ٱلْغَرْبِىِّ﴾ في هذه السورة تفاؤلاً بغروب وأفول نجم طغاة الأرض ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾[(٣)]، والله أعلم.

---

(١) القصص (٤٠).

(٢) القصص (٨١).

(٣) القصص (٨٣).

و- تحديد الموقع

ما فائدة تحديد الموقع الذي كلم الله تعالى فيه موسى في سورة القصص ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[1]؟ إذ يمكن أن يقال [نودي من جانب الطور] وكفى.

سورة القصص مقصدها الخوف والاضطراب وعدم الاستقرار لمن أعرض عن الله تعالى، وكمال الأمن لمن أقبل عليه وجاوره؛ وقد سبق بيانه. فالعبد إذا خاف الخلق ألقى بنفسه في جوار الله تعالى ليكون في مأمن. إن الأم إذا خافت على رضيعها ضمته إلى صدرها، بينما أمر الله تعالى أم موسى أن تلقي برضيعها موسى عليه السلام إلى جوار الله تعالى إذا خافت عليه من جنود فرعون ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[2]، فعندما ألقته في جوار الله تعالى رده الله إليها في نفس اليوم سالماً آمناً معززاً مكرماً يحبه كل أهل مصر ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾[3].

وفيها أن نبي الله موسى عليه السلام عندما قتل الفرعوني خاف من بطش

(١) القصص (٣٠).

(٢) القصص (٧).

(٣) القصص (١٣).

فرعون فهاجر إلى الله تعالى قائلاً: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١)، وقال ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾(٢) ثم ألقى بنفسه في جوار الله تعالى ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ فسخر الله له شيخ مدين فأمنه قائلاً: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٣)، وزوَّجه ابنته وسكن عنده عشرة أعوام.

ولما ألقى عصاه تحولت إلى ثعبان عظيم فولى منه مدبراً خائفاً فأمنه الله تعالى ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ﴾(٤). ولما أرسله إلى فرعون أظهر موسى عليه السلام خوفه ﴿إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾(٥) فأمنه بقوله تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾(٦).

وكذا لما أوذي نبينا محمد ﷺ هاجر إلى الله تعالى فأمنه الله تعالى وبشره بالرجوع منتصراً ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ

---

(١) القصص (٢١).
(٢) القصص (٢٢).
(٣) القصص (٢٥).
(٤) القصص (٣١).
(٥) القصص (٣٣).
(٦) القصص (٣٥).

﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[1]، فكانت «المدينة» أماناً له كما كانت «مدين» أماناً لنبي الله موسى عليه السلام، ثم رجع إلى مكة ظاهراً ظافراً منتصراً عام الفتح.

فإذا تبين أن السورة تتضمن تأمين من أقبل على الله تعالى وألقى بنفسه في جوار الله تعالى سهل الجواب على السؤال. لما أرسل الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم إلى قريش تحداهم بصدق ماجاء به لأنه وحي من الله ولم يأت بشيء من عنده وإنما أتى به من علام الغيوب، ومما يدل عليه أنه ذكر قصة نبي الله موسى عليه السلام كأنه شهدها، بل حدد الموقع والبقعة التي كلم الله عندها موسى عليه السلام بدقة ولم يشهدها صلى الله عليه وسلم، كما لو أخبرت عن وقوع حادث ثم حددت موقعه بدقة والتاريخ واليوم والساعة والدقيقة والثانية كان أوثق للسامع وأكثر اطمئناناً ممن لم يأت بالتحديد الذي جئت به، فكأن لسان الحال يقول لأهل الكتاب ولقريش: من يتحدى ويثبت غير هذه البقعة وهذا الموقع؟ بالرغم من أنك لم تكن موجوداً حينئذ ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾[2]، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾[3]، ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِيٓ أَهْلِ﴾[4].

(١) القصص (٨٥).

(٢) القصص (٤٤).

(٣) القصص (٤٦).

(٤) القصص (٤٥).

وإنما جاء هذا التحديد من الله تعالى فهي رسالة إلهية لذا قال بعدها: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾[١]، وقال ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾[٢].

ومما يؤكد صحة ما جئت به أن فئة من أهل الكتاب آمنوا برسالتك ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾[٣].

فذكر الموقع بدقة تطميناً لقلب النبي ﷺ وأماناً له وأنه على حق وأنها رسالة إلهية، ذلك لشدة ما لاقاه النبي ﷺ من التشكيك من قبل قريش وأهل الكتاب. فالله سبحانه هو المؤمن الذي يؤمِّن عباده ويصدقهم بالآيات والحجج والأدلة والشواهد والبراهين إذا ألقوا بأنفسهم في جواره، والله أعلم.

(١) القصص (٤٩).
(٢) القصص (٥١).
(٣) القصص (٥٢).

ز- يستمع ويستمعون

ورد في كتاب الله تعالى ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾[١] في سورتي الأنعام ومحمد ﷺ، بينما في سورة يونس عليه السلام ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾[٢] وورد بعدها ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ وليس [من ينظرون إليك] ما الحكمة من ورودها في يونس ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾؟

أولاً: المقصود في جميع السور المذكورة هم جموع الكفار، ففي الأنعام ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وكذا في سورة يونس كما هو الظاهر ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾، بينما المقصود بها في سورة محمد ﷺ المنافقون.

ثانياً: في آية الأنعام إشارة إلى استماعهم إلى قراءة النبي ﷺ للقرآن كل على حدة، وقد يصدف اجتماعهم دون تعمد ودون اتفاق لتحدي القرآن، وإن كان كل منهم يود لو تحدى القرآن. ففيها إشارة إلى أنها وردت «في قوم قليلين فنزلوا منزلة الواحد»[٣]، بينما في سورة محمد ﷺ فإن المنافقين قد يحضرون لسماع النبي ﷺ ولا يفقهون

(١) الأنعام (٢٥)، محمد (١٦).

(٢) يونس (٤٢).

(٣) روح المعاني (٧/ ١٢٥).

شيئاً مما قال وقد طبع على قلوبهم، فيخرج كل منهم قائلاً ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾[١].

ثالثاً: بينما سورة يونس مقصدها تشكيك الكفار في القرآن الذي جاء به النبي ﷺ والتشكيك في رسالته ﷺ. فأمرهم الله تعالى أن يجتمعوا اجتماعاً حاشداً من قبل ساداتهم وبلغائهم ويدعوا من أرادوا ومن استطاعوا الوصول إليه ليعين كل منهم الآخر في تقويم ما سيفترونه ليخرجوا بمنظوم واحد يتحدون فيه القرآن فقال سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾[٢]. «فَوَسَّعَ لهم في الاستعانة بجميع من قدروا عليه ووصلت طاقتهم إليه، ولم يقصرهم على من بحضرتهم. وادعوا لمعاونتكم من قدرتم على طاعته ولو ببذل الجهد من الجن والإنس وغيرهم للمعاونة»[٣].

رابعاً: ومن جهة أخرى «لكثرة تفاوت المستمعين واختلاف أحوالهم فيه»[٤]. إذ من السمع سمع إدراك، ومنه سمع فهم، فكل

(١) محمد (١٦).

(٢) يونس (٣٨).

(٣) نظم الدرر (٣/ ٤٤٤).

(٤) تفسير المنار لرشيد رضا (٣/ ٤١٤).

منهم يفهم غير فهم الآخر ويزيد وينقص على الآخر عند استماعهم القرآن للتحدي فأتت ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾[١].

خامساً: «لما كان المستمع إليه أكثر لأنهم أشهى الناس إلى تعرف حاله... جمع دالاً على كثرتهم»[٢].

فما ورد «في قوم قليلي العدد حملت في موضع القلة على حكم اللفظ، وعاد الضمير إليها بلفظ الواحد ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ كما في سورة الأنعام. وفي موضع الكثرة على حكم المعنى وعاد الضمير إليها بلفظ الجمع فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾[٣]. فالمقصود فيها «جميع الكفار»[٤].

سادساً: أما في قوله تعالى ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ ولم يقل سبحانه [ومنهم من ينظرون إليك] فإنه لا يؤثر في النظر، سواءً

---

(١) يونس (٤٢).

(٢) نظم الدرر (٣/ ٤٤٧)، الجمل (٢/ ٣٣١)، فتح القدير (٢/ ٤٤٨)، روح المعاني (١١/ ١٢٥).

(٣) درة التنزيل (١١٧)، راجع ملاك التأويل للغرناطي (١/ ٣٠٨- ٣٠٩)، فتح الرحمن (١٦٢- ١٦٣).

(٤) روح المعاني (٧/ ١٢٥).

اجتمعوا أم انفردوا بالنظر فكل منهم لا يؤثر على الآخر من جهة النظر. والله أعلم.

ح- فاسلك، فاحمل فيها

ورد في سورة هود قول الله تعالى لنبيه نوح عليه السلام: ﴿ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾[1]. بينما في سورة المؤمنين ﴿فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾[2]. فما الحكمة من الاختلاف في اللفظ؟

أولاً: ﴿ٱحۡمِلۡ﴾ معناها واضح، بينما ﴿فَٱسۡلُكۡ﴾ تتضمن عدة معانٍ منها: الدخول والنحافة والاستقامة والسهولة.

فالدخول: كقولك أسلكته أي أدخلته[3].

والنحافة: كقولك رجل مُسَلَّك أي نحيف[4]، لذا يقال سلكت الخيط لنحافته، وكذا يطلق على المدخل الضيق كقوله تعالى ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ۝٤٢﴾[5]، وقوله تعالى ﴿يَسۡلُكۡهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾[6] أي ندخله مدخلاً «في غاية الضيق[7]، فمدخلهم ضيق في النار

(١) هود (٤٠).

(٢) المؤمنين (٢٧).

(٣) لسان العرب (٢/ ١٨٨)، ملاك التأويل (٢/ ٥١٧).

(٤) لسان العرب (٢/ ١٨٨).

(٥) المدثر (٤٢).

(٦) الجن (١٧).

(٧) نظم الدرر (٨/ ١٩٣).

وقد بين ذلك قوله تعالى ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ﴾[(١)].

والاستقامة: كقولك الطريق سالك أي لا اعوجاج فيه ولا عائق. وقال تعالى: ﴿يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾[(٢)] من غير أدنى تعريج[(٣)]. يقال: ليس بِسُلْك أي ليس بمستقيم[(٤)].

والسهولة والخفة: كقول الله تعالى ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[(٥)] أي أجراه بسهولة ويسر. ﴿وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا﴾[(٦)] أي سهل لكم طرقاً تسلكونها[(٧)]، وكذا في قوله تعالى ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ﴾[(٨)]: أي أدخل على الاستقامة مع الخفة والرشاقة[(٩)].

ومن تتبع ورودها في الكتاب العزيز وجد فيها معنى **التمكين**.

(١) الفرقان (١٣).

(٢) الجن (٢٧).

(٣) نظم الدرر (٨/ ٢٠٠).

(٤) لسان العرب (٢/ ١٨٨)، القاموس المحيط (٩٥٧).

(٥) الزمر (٢١).

(٦) طه (٥٣).

(٧) نظم الدرر (٥/٢٣)، تفسير الجلالين (٥/ ٧٦).

(٨) القصص (٣٢).

(٩) نظم الدرر (٥/ ٤٨٣).

من ذلك ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾[1] قال ابن عطية: بمعنى نهج ولَـحـبَ[2] ﴿لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠﴾[3]، ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٢﴾[4] ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾[5] ﴿يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾[6] ﴿ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢﴾[7] أي أدخلوه... فيصير في غاية الضنك والهوان لا يقدر على حركة أصلاً[8].

وكذا في كلام العرب وأشعارهم، من ذلك قول زهير:

تعلَّماها لعمر الله ذا قسماً   **وافصد بذرعك وانظر أين تنسلك**

أي أين تدخل وتتمكن.

وكقول امرئ القيس:

نطعنهم سُلكى ومخلوجة   **كـرَّت كـلامـيـن عـلـى نـابـل**

---

(١) طه (٥٣).

(٢) المحرر الوجيز (١٢٥٤).

(٣) نوح (٢٠).

(٤) الحجر (١٢).

(٥) النحل (٦٩).

(٦) الجن (٢٧).

(٧) الحاقة (٣٢).

(٨) نظم الدرر (٨/ ١٣٥).

سلكى: أي الطعنة المستقيمة. والمخلوجة التي في جانب[(١)].

ففي قوله تعالى: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ أي أدخلهم في السفينة بسهولة ويسر وثبتهم في المدخل الضيق منها ليثبتوا فيه ومكِّنهم فيها لئلا تؤثر عليهم حركة السفينة المضطربة في الأمواج الهائجة.

ثانياً: سورة المؤمنين مقصدها كيف تحدد هدفك في الحياة وتضع الخطط لتسلكها فيسهل عليك السير وتخطي العقبات مهما ضاقت بك السبل لتفوز بفلاح الدارين فتتمكن وتسخر لك الأمور فيهما. فمقصدها طريق «فلاح المؤمنين» في الدارين.

فاستعمل لفظ ﴿فَٱسْلُكْ﴾ لما يدل عليه من سهولة دخولهم بالرغم من ضيقه، ثم هو مدخل مستقيم لا اعوجاج فيه مما يسهل دخوله والمرور فيه ثم الاستقرار والتمكين، فناسب مقصد السورة. لذا ورد فيها أن الدواب والسفينة مسخرة لنا وميسرة، وأنها هي التي تحملنا تيسيراً لأمورنا ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾[(٢)]. فلا يصح ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا﴾ لما في هذه الكلمة من إيحاء بتكليف نوح عليه السلام بالحمل والذي لا يخدم مقصد السورة.

(١) لسان العرب (٢/ ١٨٨).

(٢) المؤمنون (٢٢).

ثالثاً: سورة هود مقصدها مواساة الدعاة وتحمل همومهم. يا رسول الله لا بد وأن تتحمل المصائب وكذا تتحمل هموم الدعوة والدعاة إلى أن يأتي نصر الله تعالى كما تحمَّل الأنبياء قبلك، وكذا ينبغي على جميع الدعاة إلى الله تعالى. وهكذا كان رسول الله ﷺ، لذا قال النبي ﷺ: «شيبتني هود وأخواتها»[١].

فورد فيها اللفظ المناسب لمقصدها ﴿ٱحۡمِلۡ﴾ إذ تحمَّل نوح عليه السلام هَمَّ صناعتها ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨﴾[٢]، ثم تحمَّل هَمَّ حَمْلِ الدعاة عليها، وهَمّ حَمْلِ من كل زوجين اثنين، فحمل عليها ما أمر به ﴿ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾.

فلفظ ﴿ٱحۡمِلۡ فِيهَا﴾ في سورة هود ناسب مقصدها مواساة الدعاة وتحمل همومهم، ولفظ ﴿فَٱسۡلُكۡ فِيهَا﴾ في سورة المؤمنين ناسب مقصدها وهو طريق فلاح المؤمنين الذي يقتضي الاستقامة والثبات. وكذا في سورة القصص ورد في حق نبي الله موسى عليه السلام ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ

(١) رواه الطبراني (١٧/ ٢٨٦-٢٨٧)، وله عدة طرق، صححه السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٣١٩) والألباني في السلسلة الصحيحة (٩٥٥).
(٢) هود (٣٨).

فِي جَيْبِكَ﴾[١] حيث مقصدها من ألقى بنفسه في جوار الله أمنَّه الله تعالى وثبته ويسر أموره وجعل أموره في استقامة ومكَّنه، والله أعلم.

* * *

(١) القصص (٣٢).

٣- معرفة المخاطب

إن معرفة الشخص المخاطب يعين في معرفة الحِكَم من الفروق اللفظية في الآيات المتشابهة. من ذلك:

أ- انبجست وانفجرت

ورد في سورة الأعراف في قصة موسى عليه السلام ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ﴾[1]، بينما في سورة البقرة ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾[2] بدلاً من ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾. فما الحكمة؟

أولاً: الانبجاس هو انشقاقٌ ينبع منه الماء[3] من شيء ضيق[4]، ويخرج بقلة[5]. فقوله تعالى: ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ﴾ أي بدأ ظهور الماء من تشقق قليل في الحجر.

(١) سورة الأعراف (١٦٠).

(٢) سورة البقرة (٦٠).

(٣) لسان العرب (١/ ١٦١/ ٣)، نظم الدرر (٣/ ١٣٨).

(٤) الراغب (٣٧).

(٥) روح المعاني (٩/ ٨٨).

بينما الانفجار هو الانشقاق مع انبعاث الماء منه بقوة مع سعة الانتشار وكثرته[(١)]، فقوله تعالى: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾ أي انشق الحجر فانبعث منه الماء بقوة وانتشر بكثرة.

فكلا الأمرين حصلا: إذ ضرب موسى الحجر فانشق فنبع الماء بقلة ثم تفجرت وانبعثت بقوة اثنتا عشرة عيناً «فكان رشحاً في الأول والانفجار ثانيا»[(٢)].

ثانياً: في سورة الأعراف طلب بنو إسرائيل من نبي الله موسى عليه السلام إيجاد الماء ليسقون ﴿إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾. فكان موسى عليه السلام هو المخاطَب والمقصود إذ خاطبه بنو إسرائيل ﴿إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾ وطلبوا منه السقيا فقال تعالى: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾. فلما كان الافتقار من مخلوق إلى مخلوق لم يحصل الطالب إلا على النزر اليسير لأنه تعلق بمخلوق.

بينما في سورة البقرة سأل موسى عليه السلام ربه تبارك وتعالى ﴿وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ﴾[(٣)]، فلما

(١) نظم الدرر (١/ ١٤٥)، روح المعاني (١/ ٢٧١).
(٢) الجمل (١/٨٥). ونحوه في النكت والعيون للماوردي (١/ ١١٣). غرائب القرآن (١/ ٢٩٨).
(٣) البقرة (٦٠).

كان افتقار المخلوق موجهاً إلى الخالق بلا واسطة حينئذ تفجرت ينابيع الخير وعمّ فضلها وتفتحت أبواب الخير على مصاريعها ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾[١]، ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾[٢]. فكان الله جل جلاله هو المخاطب والمقصود فقال سبحانه: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ﴾. «فهذا اللفظ أبلغ لأنه انصباب الماء بكثرة[٣]، وورد في «سياق الامتنان[٤].

الخلاصة: سأل بنو إسرائيل السقيا من نبي الله موسى عليه السلام فتضرع موسى إلى الله تعالى وسأله السقيا، فأجابه الله تعالى أن اضرب بعصاك الحجر، فتشقق الحجر فبدأ الماء بالظهور «انبجس» وبعدها تفجرت العيون من الحجر فانبعث الماء بقوة. فذكرت الكلمات المناسبة في موضعها المناسب؛ فلما كان المسؤول والمخاطب مخلوقاً وهو موسى عليه السلام ناسب اللفظ الدال على النزر اليسير ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾، ولما كان المسؤول والمخاطب هو الله عز وجل ناسب الحصول على الخير الكثير العميم ﴿فَٱنفَجَرَتۡ﴾، والله أعلم.

(١) غافر (٦٠).

(٢) البقرة (١٨٦).

(٣) فتح الرحمن (٢٨).

(٤) نظم الدرر (١/ ١٤٥).

ب- الله يفعل والله يخلق

ورد في سورة آل عمران قصتا زكريا عليه السلام ومريم عليها السلام. ولكن العبارات مختلفة إذ قال الله تعالى في قصة زكريا عليه السلام: ﴿ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[1]، بينما في قصة مريم عليها السلام ﴿ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾[2]. فما الحكمة؟

أولاً: كلمة ﴿يَفۡعَلُ﴾ هو عمل فيه عظمة «وقوة وكمال[3]. لما بُشر زكريا عليه السلام بالمولود على كبر سنه وعُقر امرأته في شبابها فكيف وقد شاخت؛ عجب من هذه البشرى وسأل: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[4]. إذ أسباب الحمل غير متوفرة فهذا شيء عظيم، فجاءت الإجابة من الله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾، «فمن الأمور العجيبة مثل ذلك الفعل وهو خلق الولد بين الشيخ الفاني الذي قد يئس من الولد والعجوز العاقر التي لا يرجى من مثلها الولادة، فيفعل

---

(١) آل عمران (٤٠).

(٢) آل عمران (٤٧).

(٣) نظم الدرر (٢/ ٧٨).

(٤) آل عمران (٤٠).

ما يريد من الأفاعيل الخارقة للعادات»[١]، «لإظهار هذه القدرة العظيمة»[٢]. فلا يعجزه شيء ولا يتعاظمه أمر[٣] يخلق ويعمل الأمور العظيمة التي فيها «قوة وكمال[٤] ولا تخطر على قلب العبد.

ثانياً: أما في قصة مريم عليها السلام فالنصارى يقولون بأن عيسى عليه السلام ابن الله ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[٥]، وقالوا بأن هذا الابن جاء من أمه مريم عليها السلام، وزعموا بأن الأب هو الله جل جلاله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. ويعلم الناس ماذا يحصل بين الأب والأم لتحمل بالجنين فتجيء بمولودها. فلو جاءت الآية ﴿ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ لربما احتج النصارى بهذا النص القرآني لتأكيد زورهم وكذبهم ووجدوا لهم مدخلاً، ولأصبحت الآية وحدها موهمة. فقطع الله تعالى هذا الفهم وسد هذا الطريق عليهم فقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، «لئلا يبقى لمبطل شبهة وأكد ذلك بقوله: ﴿إِذَا

(١) الكشاف للزمخشري (١/ ١٨٨)، البيضاوي مع حاشية الشهاب (٣/ ٤٦-٤٧)، مدارك التنزيل لأبي البركات النسفي- بولاق (١٣٨٧-١٩٦٨).

(٢) تفسير الجلالين (١/ ٤٠٩) مع شرحه الجمل.

(٣) ابن كثير (آل عمران: ٤٢).

(٤) نظم الدرر (٢/ ٧٨).

(٥) الكهف (٥).

قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

ثم إن الله تعالى أراد البيان بأن عيسى عليه السلام ما هو إلا مخلوق وليس بإله فلا يناسبه القول: ﴿ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ فهذا اللفظ لا يحقق المطلوب، وإنما الذي يحققه ﴿ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾.

ثالثاً: «وقيل في قصة مريم عليها السلام ﴿يَخۡلُقُ﴾ لوجود ولد من غير والد، فهو إيجاد واختراع[2].

الخلاصة: لما كان المخاطَب في القصة الأولى زكريا عليه السلام ناسبه ﴿ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ لعظم الأمر وقوته وكماله، ولما كان المخاطب في القصة الثانية مريم عليها السلام ناسبها ﴿ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ لنفي ألوهية عيسى عليه السلام فما هو إلا مخلوق، وقطع الطريق على النصارى وإبطال اعتقادهم في عيسى عليه السلام. فاختلف السياق في الآيتين لاختلاف المخاطَب، والله أعلم.

---

(١) تفسير ابن كثير (آل عمران: ٤٧).

(٢) انظر البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (٢/ ٤٦٢).

ج- السقاية والصواع

ورد في سورة يوسف ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾(١). المقصود بالسقاية هو الصواع، فلماذا سُمِّيَ في البداية ﴿ٱلسِّقَايَةَ﴾ ثم سُمِّيَ بالصواع فقال: ﴿صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾؟ لِمَ لم يقل: [نفقد سقاية الملك]؟

أولاً: يوسف وبنيامين شقيقان من أم واحدة وباقي الأخوة العشرة من أمهات أخر. وكان الأخوة قد آذوا يوسف عليه السلام وبنيامين أشد الإيذاء إلى أن اتهموا يوسف عليه السلام بالسرقة وحسدوه وعزموا على قتله، ثم اتفقوا على إلقائه في الجب وهو طفل لم يبلغ، فتخلصوا منه ولم يكن في قلبهم رحمة عليه ولا على أبيهم الذي مازالوا يتهمونه بالضلال المبين والهلاك، فلقي منهم ألواناً من الأذى والحسد.

ثانياً: بعد سنين عديدة من إلقاء يوسف عليه السلام في الجب قدر الله أن أصبح رئيساً لوزراء مصر «عزيز مصر» ووزير المال والاقتصاد. ثم أصابت المجاعة بلاد مصر وأفريقيا والشام مدة سبع سنين. وكان

(١) سورة يوسف (٧٠-٧٢).

الملك قد جعل يوسف عليه السلام رئيساً للوزراء ووزيراً للمال والاقتصاد وهو عصب الدولة، وهو المسؤول عن توزيع القمح والطعام الذي ادخروه قبل سنوات المجاعة لمثل هذه المجاعة.

ثالثاً: ﴿ٱلسِّقَايَةَ﴾ هو ﴿صُوَاعَ﴾ فهو إناء «قيل: كان يُسْقى بها الملك ثم جعلت صاعاً يكال به»(١). لذا قالوا: «هو صاع من ذهب مرصع بالجواهر»(٢). «واتخذ هذا الإناء مكيالاً لعزة الطعام في ذلك الوقت»(٣). ولشدة حرص الملك على عدم الجور وعدم الظلم في تقسيم القوت على رعية مملكته العظمى والدول القريبة جعل إناء الذهب الخاص به والذي يستعمله لسقايته وللشرب منه جعله مكيالاً يكال به. والمكيال عند العرب يسمى بالصواع أو الصاع.

رابعاً: دخل أخوة يوسف عليه معهم بنيامين ولم يعرفوا يوسف ولكنه عرفهم، واستخدم حيلة شرعية إذ انفرد بأخيه بنيامين وأخبره بأنه أخوه يوسف، ففرح بنيامين أشد الفرح، وتوسل إلى يوسف أن لا يتركه يرجع مع إخوته وإنما يبقى معه في مصر. فاتفق يوسف عليه السلام معه على أن ينجيه منهم بأن يحتال له حيلة شرعية، ويجعل سقاية

(١) الكشاف (٢/ ٢٦٧).

(٢) الجلالين (٤/ ٦٠)، روح المعاني (١٣/ ٢٤).

(٣) الجمل (٦٢/٤)، المحرر الوجيز لابن عطية (١٠٠٨).

الملك في متاعه، ثم يسأل عنه فتقوم الحاشية بالبحث عنه ليجدوه في نهاية الأمر في رحل بنيامين. وفي شريعة يعقوب عليه السلام أن من سرق يصبح رقيقاً للمسروق منه مدة سنة. فظاهر الأمر أنها سرقة لمن لا يعرف حقيقة الأمر ليترك الأخوة أخاهم بنيامين عند يوسف عليه السلام رقيقاً، وباطنه تمام الحرية لتحرر بنيامين من ظلمهم إلى عدل يوسف عليه السلام.

خامساً: ﴿ٱلسِّقَايَةَ﴾ كلمة تشير إلى النجاة وإعادة الروح والحياة إلى الجسد. إذ تشير كلمة ﴿ٱلسِّقَايَةَ﴾ إلى الماء والشراب الذي تحيا به الأبدان ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ثم في نفس السورة وردت كلمة ﴿ٱلسِّقَايَةَ﴾ في النجاة من الموت والعقوبة، إذ قال صاحب السجن: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ بينما ﴿وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا﴾[(١)] فقال لهما يوسف عليه السلام: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾[(٢)] أي ينجو من الموت؛ بل يصبح من خاصة الملك ويسقيه خمراً، وأما الآخر ﴿فَيُصْلَبُ﴾[(٣)]. ثم قال للساقي: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا

(١) يوسف (٣٦).
(٢) يوسف (٤١).
(٣) يوسف (٤١).

ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾[1] وهو صاحب سقاية الملك، فالسقاية تشير إلى النجاة.

فدلت كلمة ﴿ٱلسِّقَايَةَ﴾ في اللغة على الشراب لإعادة الروح والحياة إلى البدن، وكذا دلت في سورة يوسف على النجاة من القتل والصلب كما حصل للساقي.

وورد في أول السورة لما ألقى يوسف في الجب ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ﴾[2]. فكان في سعيهم للسقيا والسقاية بشرى لهم وليوسف عليه السلام بالنجاة، ففي السقيا إشارة إلى النجاة والرحمة.

عوداً إلى السؤال: لما كان الكلام عن بنيامين الذي طلب النجاة والحياة السعيدة بجوار يوسف عليه السلام قال: ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ فسمى الإناء سقاية للبشارة والدلالة على نجاة بنيامين وإعادة الحياة السعيدة له.

سادساً: كلمة ﴿صُوَاعَ﴾ تدل على الكيل، وأغلب من يكيل يظلم ويطفف في كيله إلا من رحم الله تعالى ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا

(١) يوسف (٤٢).

(٢) يوسف (١٩).

ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣﴾[١]. فذكر كلمة الصواع إشارة إلى الاحتياج إلى العدل وعدم الجور في الكيل.

فلما كان الكلام مع الأخوة الذين ظلموا وجاروا وينقصهم العدل واتسموا بالجور في الكيل والتطفيف خاطبهم المؤذن بقوله: ﴿أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾، ثم قيل لهم: ﴿نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾ فناسب ظلمهم وجورهم كلمة ﴿صُوَاعَ﴾ لا كلمة ﴿ٱلسِّقَايَةَ﴾.

سابعاً: لما بحث عن ﴿ٱلسِّقَايَةَ﴾ وجدوه في متاع بنيامين. فكان فيه نجاته من إخوته وخلاصه منهم فقال سبحانه ﴿ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ﴾ أي استخرج السقاية ﴿ٱسۡتَخۡرَجَهَا﴾ فذكر بصيغة المؤنث لأن فيه النجاة. ولم يقل [ثم استخرجه] أي استخرج الصواع لأن المقام مقام بشرى ونجاة وخلاص وإعادة الحياة السعيدة لمقامه بقرب أخيه، والله أعلم.

فكل كلمة محكمة في مكانها ومحلها ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[٢].

(١) المطففين (١-٣).

(٢) هود (١).

د- يغفر لكم ذنوبكم، ومن ذنوبكم

جاء في سورة الصف قول الله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾(١)، فلم يقل سبحانه: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾(٢) كما في سورة نوح، فما الحكمة؟

أولاً: ورد في سورة الصف ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ في حق المؤمنين إذ وردت بعد قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾(٣). «أي إن تؤمنوا وتجاهدوا يغفر لكم»(٤). فهي مغفرة «شاملة للصغائر والكبائر، فإن الإيمان بالله والجهاد في سبيله مكفر للذنوب ولو كانت كبائر»(٥).

ثم «يدخلكم الجنات والمساكن الطيبات والدرجات العاليات ولهذا قال: ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ثم قال ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾(٦).

---

(١) الصف (١٢).

(٢) نوح (٤).

(٣) الصف (١٠-١١).

(٤) تفسير الأيجي (٩٦٩).

(٥) السعدي (١١٩٨).

(٦) ابن كثير (الصف: ١٢-١٣).

ثانياً: أما في سورة نوح فقد قال الله تعالى في خطاب نبي الله نوح عليه السلام لقومه الكفار: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ فقد وردت في خطاب الكفار أي «بعض ذنوبكم[(١)]».

ذلك أن من يدخل في الإسلام أصناف: منهم من يدخل تائباً من كل ما سبق من الذنوب آيباً إلى الله تعالى منيباً قد أقبل على الله بقلبه وجوارحه. فهذا الذي قال فيه النبي ﷺ لعمرو بن العاص: «إن الإسلام يهدم ما كان قبله»[(٢)].

ومنهم من يدخل في الإسلام موحداً لله تعالى ولكنه لا يريد أن يترك كل ما كان عليه في جاهليته كما ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾[(٣)]، وقد قال سعد رضي الله عنه للنبي ﷺ: يا رسول الله أعط فلاناً فإنه مؤمن. فقال النبي ﷺ: «أَوْ مسلم». ثم أقولها ثلاثاً ويرددها علي ثلاثاً ثم قال ﷺ: «إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليَّ منه خشية أن يكب في النار على وجهه»[(٤)].

---

(١) البيضاوي (٨/ ٢٧٨)، المحرر الوجيز (١٩٠٢).

(٢) مسلم (١٢١/ ٣٢١).

(٣) الحجرات (١٤).

(٤) متفق عليه رواه البخاري (١٤٧٨)، ومسلم (١٥٠) واللفظ له.

«فدل ذلك على أن ذاك الرجل كان مسلماً ليس منافقاً لأنه تركه من العطاء ووكله إلى ما هو فيه من الإسلام. فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادّعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فأدبوا في ذلك»[١].

وكما هو حال كثير ممن يدخل في الإسلام ويبقى على معاصيه لاسيما إذا صاحبه تخويف بالعقوبة الدنيوية لو استمر على كفره.

فالمشترك بين أصناف التائبين من قوم نوح هو التوبة من الشرك والكفر. ففي قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ «ينصرف بادئ ذي بدء إلى ذنوب الإشراك اعتقاداً وسجوداً»[٢]. لذا قيل ﴿مِّنَ﴾ هنا للتبعيض أي يغفر لكم الذنوب العظام التي وعدكم على ارتكابكم إياها بالانتقام[٣] وهي الشرك لتوبتكم منه.

فخاطب جميع المراحل والأصناف أن كل فرد تائب يغفر له بعد إسلامه ما تاب منه. «أي يغفر لكم من ذنوبكم ما استغفرتموه

(١) تفسير ابن كثير- الحجرات (٧/ ٣٦٨).

(٢) الطاهر عاشور (٢٩/ ١٨٩).

(٣) ابن كثير (نوح: ٤)، روح المعاني (٢٩/ ٧٠)، الدر المصون (١٠/ ٤٦٧).

منها[١]. فإذا تاب من الكفر ولم يتب من معاصيه كالخمر والزنى والسرقة والكذب غفر له كفره فقط دون الباقي، ومن تاب من جميعها غفر له جميعها. فيغفر له من ذنبه على قدر توبته وطاعته ومتابعته للنبي ﷺ وتقواه. فليس الناس سواءً في تقواهم وتوبتهم ومتابعتهم للنبي ﷺ عند إسلامهم.

فلما اختلف المخاطَب اختلفت الألفاظ، والله أعلم.

(١) النكت والعيون للماوردي (٤/ ٣٠٩).

هـ - رددنا، ورجعنا

قال الله تعالى في سورة القصص عن موسى عليه السلام: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾[1] بينما في سورة طه: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾[2] ولم يقل سبحانه: [فرددناك] كما في آية القصص، فما الحكمة؟

أولاً: ينبغي معرفة الفرق بين اللفظين **رد** و **رجع**.

أما **رجع** «فمعناه العود[3] إلى الحال السابق أو حال مماثل، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾﴾[4]. أي اجعلوني أعود إلى حالي السابق في الدنيا من الحياة والصحة. وعن أخوة يوسف عليه السلام ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[5] لعلهم يعودون إليَّ مرة أخرى كما أتوا إليَّ هذه المرة؛ أي إتيان مماثل لهذا الإتيان. وكذا يطلق على الفعل المماثل أو المقارب، ومن ذلك الإجابة: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ

(١) القصص (١٣).

(٢) طه (٤٠).

(٣) لسان العرب (١/ ١١٢٩-١١٣١).

(٤) المؤمنون (٩٩).

(٥) يوسف (٦٢).

إِلَيۡهِمۡ قَوۡلًا﴾(١) أي يفعل فعلاً مقارباً لفعل السائل وهو إجابته.

وأحياناً يصاحب الرجوع سرور وأحياناً يصاحبه حزنٌ، وأحياناً لا يصاحبه حزن ولا سرور.

ثانياً: أما **رد** فهو رجوع يصاحبه ما يُكره في حق أحد الأطراف. لذا يطلق على المطلقة «مردودة»، وكذا إذا كان في الوجه بعض قباحة أو عيب سمي الرَّدَّة. وأردَّت الناقة إذا بركت على ندىً فورم ضرعها وحياؤها. ورجل متردد إذا كان قصيراً متناهي القصر. وشيء ردٌ أي رديء. وبحر مرد إذا هاج وكان كثير الموج. وفي لسانه ردة أي حُبسة. لذا أطلق على من رجع عن الإسلام إلى الكفر «ردّة». «ورد عليه الشي» إذا لم يقبله وكذلك إذا خطَّأه(٢). لذا قال ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» أي مردود على صاحبه خيبة له.

«ففي لفظ **الرد** من الكراهية للنفوس ما ليس في لفظ **الرجوع**(٣). «وورد في مثل ذلك قول الله تعالى ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكۡرًا﴾(٤)... وفي الصحيح قوله ﷺ للشيطان حين تعرض للنبي

(١) طه (٨٩).

(٢) لسان العرب (١/ ١١٤٩-١١٥٠).

(٣) كشف المعاني (٢٤٦).

(٤) الكهف (٨٧).

ﷺ في صلاته: «فرده الله خاسئاً»[1].

ثالثاً: قال الله تعالى في سورة القصص: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ ذلك أن فرعون كان يقتل الذكور من مواليد بني إسرائيل سنة، ويترك قتل المواليد الذكور في السنة التي تليها، وهكذا ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾[2] لأن الكهان أخبروه أن هلاكه على يد رجل من بني إسرائيل. ولد موسى عليه السلام في السنة التي يقتل فيها الذكور، فخافت عليه أمه من القتل فأوحى الله إليها ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ﴾[3]. لقد تملكها الخوف على ابنها الرضيع، قيل: لما اقترب الجنود من بيتها ألقته في اليم فتملكها الحزن عليه ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾[4]. حينئذٍ أصبح فؤاد أم موسى فارغاً، إذ كادت أمه تصرخ مطالبة بابنها ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾[5]. لقد غلب على ظن فرعون أن هذا المولود من بني إسرائيل فَهَمَّ بقتله فقالت زوجته:

(١) ملاك التأويل (٢/ ٦٤٦).

(٢) القصص (٤).

(٣) القصص (٧).

(٤) القصص (٨).

(٥) القصص (١٠).

﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾[1] فامتنع عن قتله.

فطلب له فرعون مرضعة، فلم يقبل أن يرضع من أي امرأة، وعندما عرضت عليه أمه قبلها، فساور الشك مرة أخرى فرعون أن هذا المولود من بني إسرائيل وسيكون هلاك فرعون على يده. فعندما رجع موسى عليه السلام إليها كانت ترضعه رغبة ورهبة، وخوفاً وطمعاً؛ طمعاً ورغبة فيه لأنه ابنها، وخوفاً من أن يتأكد ظن فرعون حينئذٍ أن هذا المولود هو المطلوب قتله فيقدم على قتله، فكان رجوعه إلى أمه مشوباً بشيء من الخوف والكراهة. فذهب عنها الحزن على فقده لأنه الآن بين يديها، وقرت عينها به ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ ولكنه سبحانه لم ينف عنها الخوف عليه حينئذٍ، فذهب عنها الحزن ولم يبين الله تعالى أنه ذهب عنها الخوف. فقال سبحانه عندما رجع إليها موسى ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ وقبله ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ أي سيرجع إليك رجوعاً مشوباً بالخوف من أن يطلع فرعون على أنه ابنك، فتحقق ذلك إذ صاحب رجوعه إليها شيء من الكراهة والكدر والخوف.

فلما كان الخطاب في هذه الآية لأم موسى ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ وتحقق وعد الله تعالى.

(١) القصص (٩).

رابعاً: بينما الخطاب في آية طه لنبي الله موسى عليه السلام لإظهار منة الله تعالى عليه. ففي رجوع الرضيع موسى عليه السلام إلى أمه لم يصاحبه شعور في نفسه بالكراهة والخوف لكونه رضيعاً، بل ازداد إقبالاً عليها فرضع منها دون غيرها، بل كان أشد التصاقاً وراحة وسعادة وهو بين يدي أمه رضيعاً.

لذا لما كان المخاطَب موسى عليه السلام ولم يصاحب حاله حينئذ شيء من الكراهة قال له سبحانه: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾، ولما كان المخاطَب أمه التي صاحبها شيء من الكراهة والخوف في رجوعه إليها قال سبحانه: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾.

فلما اختلف المخاطَب اختلفت الألفاظ، والله أعلم.

٤- معرفة المتكلم عنه

معرفة الشخص المتكلم عنه يعين في معرفة سر الفروق اللفظية في الآيات المتشابهة. من ذلك:

أ- غلام حليم، عليم

بشرت الملائكة الخليل إبراهيم ﷺ بمولود وصف بالعلم ﴿بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾[1]. في الحجر والذاريات بينما في سورة الصافات ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝١٠١﴾[2]، فهل من حكمة؟

أولاً: أما «الغلام الحليم فهو إسماعيل[3]، وهو المولود الذي سبق إسحاق، وهذه البشرى أتت بعد أن هاجر الخليل إبراهيم ﷺ من العراق إلى الشام ثم مصر وترك قومه مهاجراً إلى الله تعالى ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٩٩ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠٠ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ

---

(١) الحجر (٥٣)، الذاريات (٢٨).

(٢) الصافات (١٠).

(٣) نظم الدرر (٦/ ٣٢٦).

حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾[1] فبشر بإسماعيل، «وفي نص كتاب أهل الكتاب أن إسماعيل عليه السلام ولد ولإبراهيم صلى الله عليه وسلم ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وعمر إبراهيم تسع وتسعون سنة، وعندهم أن الله تعالى أمر إبراهيم صلى الله عليه وسلم أن يذبح ابنه وحيده وفي نسخة أخرى: بِكرَهُ[2]. وإسماعيل عليه السلام هو وحيد إبراهيم صلى الله عليه وسلم قبل ولادة إسحاق عليه السلام.

ووصف إسماعيل عليه السلام بالحلم لأنه كان حليماً في تقبله لرؤيا أبيه بذبحه ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[3] «وأي حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح[4]، وهو الذي «وصف بالصبر في قوله تعالى ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾[5]، وكذا وصفه الله تعالى بصدق الوعد في قوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾[6] لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى به[7].

---

(١) الصافات (٩٩-١٠١).

(٢) ابن كثير (الصافات: ١٠١).

(٣) الصافات (١٠٢).

(٤) الكشاف (٣/ ٣٠٦)، مجموع الفتاوى لابن تيمية (٤/ ٣٣٢).

(٥) الأنبياء (٨٥).

(٦) مريم (٨٥).

(٧) الكشاف (٣/ ٣٠٨)، مجموع الفتاوى (٤/ ٣٣٤).

لقد أكرمه الله تعالى لهذا الصبر كبشاً فداءً لابنه وبشره بمولود آخر جديد ثواباً لقبوله بذبح ابنه فقال الله تعالى بعدها: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٢﴾[(١)] فبشره بابن جديد وسيكون نبياً. فالبشارة ليست بنبوة إسحاق إذ لم يقل سبحانه [وبشرناه بنبوة إسحاق] وإنما بشره ببشارتين: الأولى بمولود جديد اسمه إسحاق ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ﴾، والثانية أنه سيكرم بالنبوة ﴿نَبِيًّا﴾، وقد جاءت هاتان البشارتان على يد الملائكة عندما أتوه لإخباره بإهلاك قوم لوط.

ثانياً: المقصود «بالغلام العليم هو إسحاق عليه السلام»[(٢)]، فهو ابن سارة زوج إبراهيم ﷺ. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ٦٩ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ٧٠ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ٧١﴾[(٣)] فبشر بإسحاق عند مجيء الملائكة لإخباره بإهلاك قوم لوط.

---

(١) الصافات (١١٢).

(٢) ابن كثير (سورة الحجر)، نظم الدرر (٦/ ٣٢٦).

(٣) هود (٦٩-٧١).

وفي هذه الزيارة وصف المولود بالغلام العليم كما في سورة الذاريات ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾[1]، وفي الحجر ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾[2].

الخلاصة: إن وصف العلم جاء لإسحاق عليه السلام والحلم لإسماعيل عليه السلام فاختلف المتكلم عنه. والله أعلم.

(١) الذاريات (٢٤-٢٨).

(٢) الحجر (٥١-٥٣).

ب- بلغ أشده آتيناه، واستو

قال الله تعالى في سورة يوسف: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾[1]، بينما قال في سورة القصص: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾[2] بزيادة ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾، فما الحكمة من هذه الزيادة؟

أولاً: في الآية الأولى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾ وردت في سورة يوسف، فالمتكلم عنه في الآية هو يوسف عليه السلام. قيل كان ذلك في أولى سني الشباب أولى سني البلوغ لقوله تعالى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾، حيث «قيل إن بلوغ الأشد أن يحتلم، والأشد جمع شد وهو قُوى من العقل يحتمل التكليف... لأن الغلام إذا بلغ شدت أعماله، وكتبت حسناته وسيئاته»[3]. و«روى عن ابن عباس أنه يبدأ من عشرين سنة»[4]. وفي هذه السن يغلب على الشباب الغريزة الجنسية، فيكون في ذروة الشهوة مع عدم اكتمال النضج العقلي. وغالباً الشاب حديث البلوغ لا يكون في حالة اتزان تام، بل في وضع مضطرب تغلب عليه العواطف وفي قمة الانفعال، فإذا أحب اشتد حبه وغلب

---

(١) يوسف (٢٢).

(٢) القصص (١٤).

(٣) درة التنزيل (٢٣٩-٢٤٠).

(٤) نظم الدرر (٤/ ٢٧).

عليه، وإذا أبغض أحداً اشتد بغضه له، ويتضح هذا في شدة تعلق هذا السن بالرياضيين والفنانين والمشاهير وغيرهم إلى حد الثمالة.

ثانياً: تعرضت امرأة العزيز ليوسف عليه السلام وهي في كامل زينتها وجمالها وظهور مفاتنها حيث دعته إلى مخدعها في حجرتها ﴿فِي بَيْتِهَا﴾[(١)] فأغلقتها عليه وألقت بنفسها إليه، وقد أغلقت جميع أبواب القصر لئلا يدخل عليهم زوجها بالرغم من كونها سيدة على زوجها؛ أمرها غالب عليه. وكان يوسف عليه السلام في أولى سني الشباب، وهذا السن ينبئ عن ذروة الشهوة والغريزة الجنسية والعاطفة والانفعال إلا أنه لكمال عقله وتقواه وعفته امتنع عن المعصية و«هذا في غاية مقامات الكمال: أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته وهي امرأة عزيز مصر وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة ويمتنع من ذلك ويختار أن يسجن على ذلك خوفاً من الله ورجاء ثوابه»[(٢)].

فلو قيل فيه ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ أي **اعتدل** في السن «وتم استحكامه وبلغ

(١) انظر تفسير القرطبي (٩/ ١٠٩) روح المعاني (٢١١/١٢) موسوعة تفسير سورة يوسف (٢٣٣).

(٢) تفسير ابن كثير، سورة يوسف (٣٣).

المبلغ الذي لا يزاد عليه وذلك أربعون سنة[١] ونضج لفُهِم منه أنه تعرضت له امرأة العزيز بعد استوائه ونضوجه أي بعد فوات هذه المرحلة وتجاوزها، بعد أن وصل إلى سن الاتزان العاطفي والنظر في عواقب الأمور ومعرفة المصالح والمفاسد، فمن اقترب من سن الأربعين لا يستجيب بسرعة إلى الإغراءات بل يتمهل وينظر فيما وراء ذلك. بينما المقصود بيان اتزان يوسف عليه السلام وعفته في ذروة مرحلة الانفعال عند الشاب قبل أن يستوي ويصل الأربعين «فلم ينتظر بيوسف عليه السلام الاستواء»[٢] فلم يقل الله سبحانه [واستوى] «إظهاراً لكمال نزاهته عليه السلام، فإن عدم ميله إليها مع دوام مشاهدته لمحاسنها واستعصائه عليها مع كونه تحت ملكها ينادي بكونه عليه السلام في أعلى معارج العفة والنزاهة[٣]، فآتيناه ﴿حَكَمًا﴾ «حكمة وهو العمل بالعلم واجتناب ما يجهل فيه وقيل: حكماً بين الناس وفقهاً[٤]».

ثالثاً: وردت الآية الثانية في نبي الله موسى عليه السلام وهو من بني إسرائيل فنشأ في مصر في بيت فرعون. وكانت مصر آنذاك تتألف من طبقتين؛ طبقة الملوك الفراعنة المتجبرة وأتباعهم من الأقباط،

(١) الكشاف (٣/ ١٥٩).

(٢) درة التنزيل (٢٣٩-٢٤٠).

(٣) الجمل نقلاً عن أبي السعود (٤/ ٢٢).

(٤) الكشاف (٢/ ٢٤٨).

والطبقة الكادحة المستضعفة طبقة بني إسرائيل. وغالباً ما يستضعف أفراد الطبقة المتجبرة أفراد الشعب، فكانوا يقتلون ذكور بني إسرائيل ويعتدون عليهم بالضرب والإهانة والاحتقار «وعرف عن موسى نفرته من البغي وانتصاره للمظلومين»[1]. ففي أحد الأيام دخل موسى عليه السلام مصر ظُهراً في غفلة من الناس وخلودهم إلى البيوت فرأى رجلين يقتتلان أحدهما إسرائيلي والآخر فرعوني، فاستغاث به الإسرائيلي، فغلب على ظن موسى عليه السلام كالعادة أن الفراعنة هم الذين يبدؤون بالاعتداء لذا حكم موسى عليه السلام بغلبة الظن وبالشواهد والقرائن الدالة على اعتداء الفرعوني، فانتصر للإسرائيلي وضرب الفرعوني دون قصد قتْله فإذا هو ميت بين أيديهم لقوة موسى عليه السلام، فاستغفر موسى ربه تعالى.

قد يخطر في ذهن القارئ لهذه القصة أن نصر موسى عليه السلام للإسرائيلي بسبب العصبية القبلية الجاهلية، بينما في حقيقة الأمر أن «وكزه القبطي لم يكن إلا انتصاراً للحق على جميع التقادير»[2]. لذا كان الجواب أن هذه النصرة من موسى عليه السلام للإسرائيلي لم تنتج عن عصبية قبلية في أولى سني الشباب التي يكون فيها الشاب والفتى

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٦٨٤).

(٢) الطاهر عاشور (٢٠/ ٨٩).

في قمة الانفعال والانتصار للعائلة والقبيلة والغضب لها إذ «لم يفعل شيئاً من ذلك إلى أن بلغ الأشد والاستواء» بعد أن تم نضجه. فجاءت هذه النصرة عن نضج كامل وتفكير سوي بعد تجاوز مرحلة الحداثة والانفعال الإنساني وذروة الشباب، وبعد بلوغ مرحلة الاعتدال والنظر في عواقب الأمور وفي المصالح والمفاسد، فقال سبحانه: ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ «جسده وتم طوله وعرضه وخرج من جملة الأحداث»[١] «وانتهى شبابه»[٢] «أي اعتدل في السن وتم استحكامه بانتهاء الشباب، فتكامل عقله وصحت بصيرته وصلحت نحيرته وآن أوان خطابه»[٣]، وأوتي علم «الحكماء والعلماء أو سمتهم قبل النبوة، فلا يقول قولاً ولا يفعل فعلاً يستجهل فيه»[٤] «فاستكمل وانتهى إلى أحسن الحالات في السن»[٥].

فلو لم يقل سبحانه: ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ لفُهِم منه أن نصرة موسى عليه السلام للإسرائيلي كانت في بدء مرحلة البلوغ والانفعال الإنساني، فناسب ذكر ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾. والله أعلم.

---

(١) درة التنزيل (٢٣٩-٢٤٠).
(٢) تفسير القرآن لأبي المظفر السمعاني (٤/ ١٢٧).
(٣) نظم الدرر (٥/ ٤٧٠).
(٤) الجمل نقلاً عن أبي السعود (٦/ ١٢).
(٥) ملاك التأويل (٢/ ٥٣٩).

ومناسبة أخرى لذكر ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ في قصة موسى عليه السلام أن موسى عليه السلام كان قد اقترب من سن النبوة «فقد استوى وتهيأ لحمل أسرار النبوة، أما يوسف فلم يكن إذ ذاك قد بلغ هذا السن[1] فاختلف اللفظ لاختلاف المتكلم عنه، والله أعلم.

(١) الجمل (٤/ ٢١).

جـ- تجري تحتها، من تحتها

ورد في قول الله تعالى في أهل الجنة: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾(١) في كل سور القرآن إلا في آية واحدة في سورة التوبة في قراءةٍ ﴿تَجْـرِى تَحْتَهَـا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾(٢)، فما الحكمة والسر فيها؟

أولاً: أهل الجنة صنفان منهم أهل اليمين وجاء فيهم قوله تعـالـى: ﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾(٣)، وهـم الأبـرار المؤمنون ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾(٤)، وهم الذين قال المولى فيهم: ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾(٥) وورد فيهم ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾(٦).

أما الصنف الثاني وهم الأعلى رتبة هم السابقون المحسنون عباد الله المقربون، وفيهم جاء ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾(٧)،

---

(١) البقرة (٢٥).
(٢) التوبة (١٠٠).
(٣) الواقعة (٢٧).
(٤) الإنسان (٥).
(٥) فاطر (٣٢).
(٦) الرحمن (٦٢).
(٧) الواقعة (١٠).

وقوله: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ۝٦﴾[(١)]، وورد فيهم ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾[(٢)].

ثانياً: في كل صنف درجاتٌ ومراتب يتراءاها أهل الجنة، كما قال النبي ﷺ: «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم». قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال ﷺ: «بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»[(٣)]. وأعلاها مطلقاً الفردوس الأعلى التي سقفها عرش الرحمن.

ثالثاً: **مِنْ** في اللغة للابتداء، ففي قوله تعالى ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي أن الأنهار تبدأ بجريانها في مستوى وطء أرجلهم لأرض الجنة.

رابعاً: في قوله تعالى ﴿تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ وردت هذه الآية في السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار خير الناس بعد الأنبياء والرسل ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي

(١) الإنسان (٦).

(٢) الرحمن (٤٦).

(٣) رواه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١/ ٧١٤١).

تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ﴾(١) جعلنا الله منهم. فلم يذكر سبحانه **[من]** الابتداء، فهم في غاية العلو الذي سقفه عرش الرحمن. فأهل هذه الدرجة يتنقلون فيما بين أرضهم المنبسطة التي تجري فيها الأنهار في مستوى وطء أرجلهم لها كما في الآيات الكثيرة ﴿مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ إلى مواضع بالغة العلو في فردوسهم أعلى من موضع جريان الأنهار «لبيان بعد منزلتهم في الفضل وعظم الدرجة من مؤمني الأعراب»(٢)، «فهي تخص بجنة هي أعظم الجنان رياً وحسناً وزياً»(٣). «فَنَبَّهَ على عموم رِيِّها وكثرة مائها»(٤). فقال سبحانه: ﴿تَجۡرِي تَحۡتَهَا﴾ ولم يقل سبحانه [تَجْرِي من تَحْتَهَا]، فاختلف اللفظ لاختلاف المتكلم عنه، والله أعلم.

---

(١) التوبة (١٠٠).

(٢) روح المعاني (١١/ ٩).

(٣) نظم الدرر (٣/ ٣٨٠).

(٤) نظم الدرر (٣/ ٣٧٩).

د- قاصرات ومقصورات

في سورة الرحمن ذكرت الحور العين فوردت في الآية الأولى ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾[1]، وفي الآية الثانية ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾[2]. فلماذا في الأولى ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾ وفي الثانية ﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾؟

أولاً: أهل الجنة ينقسمون إلى قسمين:

القسم الأعلى: وهم المحسنون وفيهم الرسل والأنبياء والصديقون وأهل الدرجات العلى، وهم السابقون المقربون عباد الله تعالى، وهم الذين يؤدون الواجبات ويجتنبون المحرمات ويتقربون بالنوافل والسنن ويجتنبون المكروهات.

والقسم الآخر: وهم أصحاب اليمين دونهم في المرتبة، وهم الذين يؤدون الواجبات ويجتنبون المحرمات فقط وإذا أذنبوا تابوا إلى الله تعالى، ويسمون بالأبرار.

ثانياً: القسم الأول وهم المحسنون السابقون المقربون يعبدون الله تعالى كأنهم يرونه، أعينهم لا تفارق محابه وطاعاته. قد قصروا أعينهم على ما يحبه الله تعالى، فلا يلتفتون إلى غيره لشدة حبهم له

(١) الرحمن (٥٦).

(٢) الرحمن (٧٢).

ولتعلق قلوبهم به، وإذا تعارضت طاعة الله تعالى وما يحبه مع طاعة غيره قدموه على جميع المخلوقات. فتقربوا إلى الله تعالى بالواجبات وكذا بالمستحبات والسنن المؤكدة وهم مخيرون في فعلها أو تركها ولكنهم اختاروا فعلها. فلما قصروا أعينهم على محابه سبحانه وعلى مرضاته جازاهم الله تعالى بأن قصرت الحور العين أعينها عليهم اختياراً منهن لشدة «محبتهن لهم»[١] وتعلقهن بهم، «قال الحسن البصري: والله ما هن متبرجات ولا متطلعات إلى غير أزواجهن.[٢]

● ثم فيها دلالة على كمال جمال المحسنين إذا ما دخلوا الجنة لحسن أفعالهم، وكذا وضاءة ونضارة وجوه المحسنين التي جعلت أبصار الحور العين لا تفارق النظر إلى هذه الوضاءة.

● وهذه الوضاءة والنضارة ناتجة عن كثرة نظر هذا القسم إلى الله تعالى يوم القيامة حيث ازدادت نضارة وجوههم وزاد حسنها حين استمتعوا بكثرة النظر إلى الله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾[٣] «لذا قصرن أبصارهن عليهم لا ينظرن إلى غيرهم[٤]. «فلا

(١) بدائع التفسير لابن القيم (٤/ ٣٣٨).

(٢) بدائع التفسير لابن القيم (٤/ ٣٣٥).

(٣) القيامة (٢٢).

(٤) الكشاف (٤/ ٥٤)، البيضاوي والشهاب الخفاجي (٩/ ٥٩).

يرين شيئاً في الجنة غير أزواجهن»[1]، قال ابن زيد: «تقول لزوجها: وعزة ربي ما أرى في الجنة أحسن منك. فالحمد لله الذي جعلك زوجي وجعلني زوجتك»[2].

● ومن معانيها: أنهن سبب في قصر طرف المؤمن عليهن، إذ جعلن أزواجهن يقصرن الطرف عليهن. لما؟ فيها إشارة إلى الجمال الباهر الذي أكرم الله به الحور في الجنة أن جعل أعين المحسنين لا تلتفت إلى جمال غيرهن من المخلوقات في الجنة «فلا يدعهم حسنهن وجمالهن أن ينظروا إلى غيرهن[3].

فدلت الآية على أربعة أمور:

- كثرة نظر أصحاب هذه الدرجة إلى الله تعالى.

- فازدادت وجوههم حسناً وجمالاً.

- فتعلقت الحور العين بهم لجمالهم ولشدة محبتهن لهم فلم يلتفتن إلى غيرهم اختياراً «فقد قصرن طرفهن وهِمَمَهن على

(١) تفسير ابن كثير (الرحمن: ٥٦).
(٢) الجمل (٧/ ٣٧٨).
(٣) بدائع التفسير لابن القيم (٤/ ٣٣٥، ٣٣٨)، الشهاب الخفاجي(٩/ ٥٩)، السمين (١٠/ ١٨٢)، الجمل (٧/ ٣٧٨).

أزواجهن[١].

- وكذا دل على جمال الحور مما قصر طرف المحسن عليهن إذ «لهن من الجمال ما قصرن به أزواجهن عن الالتفات إلى غيرهن لفتور الطرف وسِحْره وشدة أخذه للقلوب جزاء لهم على قصر هِمَمِهم في الدنيا على ربهم»[٢].

ثالثاً: أما المؤمنون الأبرار فقد التزموا الأوامر والنواهي فقط خشية العقوبة دون السنن المؤكدة والمستحبات، فأكرمهم الله تعالى بالحور العين اللائي أجبرن على النظر إليهم، وأجبرن على عدم النظر إلى غيرهم لما في لفظ ﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾ «من الإشعار بالقسر في القصر»[٣]. فالتزمت الحور العين بالأوامر الإلهية بالنظر إلى أزواجهن، وكذلك التزمت الحور بالنواهي الإلهية في عدم النظر إلى غير أزواجهن.

● ومن معانيها أنهن «قصرن في خدورهن»[٤]، ففيها إشارة إلى «قَصْر الرِّجل عن التبرج والبروز والظهور للرجال، فهن مخدرات

(١) نظم الدرر (٧/ ٣٩٥).

(٢) نظم الدرر (٧/ ٣٩٥)، راجع السعدي (١١٥٧).

(٣) الشهاب الخفاجي (٩/ ٦١).

(٤) الكشاف (٤/ ٥٥).

مصونات[1] «مقصورات على أزواجهن ومحبوسات صيانة عن التبذل[2] للدلالة على «عظمتهن[3]، فالجزاء من جنس العمل.

● وقيل: في القصور أي «الخيمة في داخل القصر[4] قال سبحانه: ﴿مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾.

وقيل: «ضرب على كل واحدة منهن خيمة على شاطئ الأنهار سعتها كذا وكذا ميلاً، وليس لها باب، حتى إذا دخل ولي الله الجنة انصدعت الخيمة عن باب ليعلم ولي الله أن أبصار المخلوقين من الملائكة والخدام لم تأخذها، فهي مقصورة قد قصرها بها عن أبصار المخلوقين[5] «ولاشك أن من قصرت طرفها بنفسها أفضل ممن قُصِرت وإن كان الجميع مخدرات[6]، والله أعلم.

(١) الشهاب الخفاجي (٩/ ٦١).
(٢) بدائع التفسير لابن القيم (٤/ ٣٤٠).
(٣) نظم الدرر (٧/ ٣٩٩).
(٤) الجمل (٧/ ٣٨٢).
(٥) تفسير الجمل نقلاً عن الحكيم الترمذي (٧/ ٣٨٢).
(٦) ابن كثير، الرحمن (٧٢).

هـ - فتحت، وفتحت

قال الله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾[1] بينما قال سبحانه عن أهل الجنة: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾[2]، فحذفت **الواو** عن الكفار، وأثبتت في حق المؤمنين، ما الحكمة؟

أولاً: سأل المأمون يوماً يحيى بن المبارك عن شيء فقال يحيى: لا، **وجعلني** الله فداك يا أمير المؤمنين. فقال المأمون: لله دَرُّك، ما وضعت **واو** قط موضعاً أحسن من موضعها في لفظك هذا. ووصله وحمله.

فتأمل لو حذفت **الواو** كيف سيتغير المعنى ويصبح «لا جعلني الله فداك» ثم انظر إلى بلاغة وجود **الواو** وحذفها في كتاب الله تعالى.

ثانياً: إن الكفار يوم القيامة يُدفعون ويساقون سوقاً إلى نار جهنم، فإذا انتهى إليها في ظلمة حالكة وأبوابها مغلقة فتحت في وجوههم. ففاجأهم وبغتهم لهيبها وشهيقها وفورانها وعذابها وما

(١) الزمر (٧١).

(٢) الزمر (٧٣).

أعد الله عَزَّوَجَلَّ لهم فيها، «فهم بمنزلة من وقف على باب لا يدري بما يفتح له من أنواع الشر، إلا أنه متوقع منه شراً عظيماً ففتح في وجهه، وفاجأته روعته وألمه وما كان يتوقعه[1] وما لا يتوقعه، فقال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ ففيها زيادة في الخوف والرعب للمفاجأة.

● وهي «كأبواب السجن لا تترك مفتوحة بل تفتح بعد مجيئهم ثم تغلق»[2] «ليبقى حرها إليهم؛ إهانة لهم»[3].

● وفيها معنى زائد وهو «توقيف الخزنة لهم إلى مجيء الرسل»[4].

● و«في وقوفهم قبل فتحها مذلة لهم... وهكذا هو حال السجون ومواضع الثقاف والعذاب»[5].

● وفي وقوفهم انتظاراً لفتحها وهم يسمعون ما بداخلها من

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٧٤-١٧٥).

(٢) الشهاب الخفاجي (٨/ ٢٢٨)، بدائع الفوائد (٢/ ١٧٤-١٧٥)، روح المعاني (٢٤/ ٣٢).

(٣) تفسير الجلالين (٦/ ٤٥٤).

(٤) المحرر الوجيز (١٦٢٥).

(٥) المحرر الوجيز (١٦٢٥).

شهيق وزفير وفوران واضطراب وإضرام زيادة في الرعب قبل فتحها، كالمجرم الذي ينتظر العقوبة فيسمع صياح المعاقبين وصراخهم وآلامهم فيزداد خوفاً وهمّاً وألماً قبل أن تصيبه العقوبة.

ثالثاً: «هذا بخلاف أهل الجنة، فإنهم لما كانوا مساقين إلى دار الكرامة، وهي مأدبة الله تعالى، وكان من تمام إكرام الضيف المدعو الزائر أن يفتح له باب الدار قبل مجيئه، فيجيء فيلقاه مفتوحاً فلا يلحقه ألم الانتظار»[١]. فقال سبحانه: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ أي وكانت قد فتحت أبوابها قبل مجيئهم ترحيباً كما قال تعالى: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾[٢] وإكراماً لهم بما يفوح من رائحتها وعبيرها، ويرون من زهرتها وبهجتها، ليكون لهم سائقاً ثانياً إلى ما لم يروا مثله.

فهي «كمنازل الأفراح»[٣]. «تفتح لهم قبل قدومهم تكريماً لهم كما تفتح الأبواب لمن يدعى للضيافة»[٤] وقد «وقف خزنة الجنة منتظرين لهم»[٥]. فاللهم اجعلنا منهم من أهل الفردوس الأعلى ووالدينا وأهلينا.

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٧٤-١٧٥).

(٢) سورة ص (٥).

(٣) المحرر الوجيز (١٦٢٥).

(٤) الشهاب الخفاجي (٨/ ٢٢٨)، تفسير الجلالين (٦/ ٤٥٤)، روح المعاني (٢٤/ ٣٤).

(٥) روح المعاني (٢٤/ ٣٤).

٥- معرفة المتكلم

معرفة المتكلم من الطرق المعينة على معرفة سر الفروق في الألفاظ، من ذلك:

أ- ما أنزل إلينا، علينا

ورد في سورة البقرة قول الله تعالى ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾[1]، بينما في سورة آل عمران ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ﴾[2] الآية. هل من حكمة في قول المولى جل وعلا في سورة البقرة ﴿أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ بينما في سورة آل عمران ﴿أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾؟

أولاً: لابد وأن يفرق بين «أنزل على» و«أنزل إلى». أما «أنزل على» «فأصلها أن تستعمل فيمن نزل الوحي عليه[3]، لذا فهي ترد في

---

(١) البقرة (١٣٦).

(٢) آل عمران (٨٤).

(٣) درة التنزيل (٣٦)، ونحوه في ملاك التأويل (١/ ٩٥-٩٦).، وفتح الرحمن (٤٠-٤١).

سياق التشريف والإكرام، لأن **على** تدل «على مجيئه من علو»[1]. فتسبغه البركة من أعلاه إلى أسفله، وكما في حال التطهر بالاغتسال يفيض على رأسه ثم يجلل جسده فتعمه الطهارة، وكحال الفائز فإنه يقلد الميدالية الفضية أو البرونزية أو غيرها، وأحياناً يقلد إكليل الزهور فتنزل هذه القلادة على رأسه إلى رقبته كما هو الحال في عادات الأمم الأخرى تكريماً له.

ثانياً: في سورة آل عمران وردت الآية ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ لأن المتكلم هنا هو رسول الله ﷺ فهو الذي أنزل عليه القرآن وهو الذي سيقول ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، لذا وردت ﴿قُلۡ﴾ يا رسول الله وليس «قولوا»، فهو الذي شرف بالرسالة وأكرم بنزول القرآن عليه تشريفاً وتفضيلاً. «فلما كانت سورة آل عمران قد صدرت الآية بما هو خطاب للنبي ﷺ وهو قوله ﴿قُلۡ ءَامَنَّا﴾ كانت «على» أحق بهذا المكان لأن الوحي أنزل عليه»[2].

ثم سورة آل عمران مقصدها «محمد رسول الله ﷺ»، فمن المناسب أن ترد الآية ﴿عَلَيۡنَا﴾ لتأكيد مقصد السورة أن محمداً ﷺ

(١) المرجع السابق.
(٢) درة التنزيل (٣٥)، ونحوه في ملاك التأويل (١/ ٩٥-٩٦)، وفتح الرحمن (٤٠-٤١).

هو الذي شرف بالرسالة وبنزول القرآن عليه. فالذي سيتكلم ويقول: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ هو رسول الله ﷺ. «ولما كان الإنزال على الشيء مقصوداً به ذلك الشيء بالقصد الأول[(١)] ناسب اللفظ المذكور.

ثالثاً: بينما «أنزل إلى» ترد في سياق العمل بما نزل من أمر ونهي، أي نزل الكتاب وانتهى إلينا، وكتاب الملك إذا انتهى إلى الرعية فعليهم العمل به «إذ تستعمل **إلى** للمنتهى، فإنه إذا بلغه يقال فيه: انتهى إليه... فاختيرت فيها **إلى** لأنها مصدرة بخطاب المسلمين... فالمؤمنون في الحقيقة لم ينزل عليهم الوحي من السماء، وإنما أنزل على الأنبياء ثم انتهى من عندهم إليهم، فلما كان ﴿قُولُوٓاْ﴾ خطاباً لغير الأنبياء وكان لأممهم كان اختيار **إلى** أولى من اختيار [على][(٢)] فالمتكلم في نهاية الأمر ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ في سورة البقرة هم المؤمنون، لذا وردت الآية ﴿قُولُوٓاْ﴾ أيها المؤمنون.

فالمقصود بقول المؤمنين: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ أي نؤمن بما أنزل إلينا من الأوامر والنواهي لنعمل بها حتى نصل إلى مرضاة الله تعالى

(١) نظم الدرر (٢/ ١٢٠).
(٢) دره التنزيل (٣٥)، نظم الدرر (١/ ٢٥٤).

ومحبته وتكتمل عبوديتنا له، إذ وردت هذه الآية في سورة البقرة سورة العبودية والمحبة لله تعالى.

رابعًا: «لما خص الخطاب في آل عمران بالنبي ﷺ ناسب الاستعلاء، ولما عم هناك جميع المؤمنين ناسب الانتهاء[1].

خامسًا: وقد ورد كلا الحرفين في حق النبي ﷺ في سورة النساء بالمعنيين المذكورين، فلما كان القصد هو الانتهاء إليه للعمل به قال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾[2] ولما ورد في سياق التشريف والتفضيل قال بعد الآية السابقة: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴿١١٣﴾﴾[3].

فاختلف اللفظ لاختلاف المتكلم، والله أعلم.

---

(١) الجمل نقلاً عن شيخه (١/ ٤٤٨).

(٢) النساء (١٠٥).

(٣) النساء (١١٣).

ب- ويذبّحون، يذبّحون

ورد في سورة البقرة ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾(١) بينما في سورة إبراهيم ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾(٢) فلماذا في البقرة ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ وفي إبراهيم ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾؟

أولاً: الآيتان وردتا في ذكر ما كان يلاقيه بنو إسرائيل من الفراعنة، فقد كان الفراعنة يؤذون ويعذبون بني إسرائيل عذاباً بالغاً ابتداءً من الإهانات المتوالية في الخدمة إلى الضرب الموجع إلى نزع ملكيتهم إلى شتى أنواع الظلم ثم الانتهاء إلى تعذيب الوالدين بتعذيب أبنائهم أمامهم وذبح الأبناء على مرأى منهم. فتفضل الله تعالى على بني إسرائيل ومنّ عليهم بأن نجاهم من جميع أنواع العذاب.

فعندما ذكر الله تعالى مننه وفضائله على بني إسرائيل لم يذكر المنن والفضائل التي قد تراها العين صغيرة، فالسيد كامل السؤدد يغض الطرف عن العطايا والمنن الصغرى ولا يذكر إلا الكبرى لكمال سؤدده، فكان ما دون ذلك من العذاب في النظر الإلهي

---

(١) البقرة (٤٩).

(٢) إبراهيم (٦).

«لا يعتد به»[١]. وإنما ذكر «أعظم أحوال سوء العذاب»[٢].

ثانياً: حياءً لم يذكر الله تعالى المنن الصغرى ولم يشر إليها ولم يترك لها أثراً وذكراً إلا بقوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ ثم قال سبحانه في سورة البقرة: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ لأن «المتكلم هو الله تعالى فوقع تفسيراً لما قبله»[٣].

ثالثاً: أما في سورة إبراهيم «فالمتكلم هو موسى عليه السلام ليدل على تعدد النعم والأيادي على بني إسرائيل»[٤]، إذ «كان مأموراً بتعداد المحن في قوله تعالى له ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾[٥] فعدد المحن عليهم فناسب ذكر العاطف»[٦]، فذكّرهم موسى عليه السلام بالمنن الصغرى والكبرى. ودائماً إذا أراد المحب أن يذكر أيادي المحبوب على غيره فإنه يعدد الصغيرة والكبيرة لشدة حبه له، ولبيان عظم فضائله وكثرة أياديه في حق الطرف الآخر. فعندما كلم موسى عليه السلام بني إسرائيل عدَّد كثيراً من

(١) الطاهر عاشور (١/ ٤٩٣).
(٢) المرجع السابق.
(٣) الجمل (١/٧٥) فتح الرحمن (٢٤-٢٥)، الشهاب الخفاجي (٢/ ٢٥١).
(٤) المصدر السابق.
(٥) إبراهيم (٥).
(٦) الجمل (١/ ٧٥)، فتح الرحمن (٢٤-٢٥)، الشهاب الخفاجي (٢/ ٢٥١).

أيادي الله تعالى عليهم في تخليصهم من عذاب الفراعنة، فما ترك صغيرة ولا كبيرة في إنقاذهم ونجاتهم منهم إلا وذكرها لهم.

رابعاً: فلما نقل الله تعالى لنا كلام موسى عليه السلام استحيى الله تعالى أن يذكر ما دون الذبح لكمال سؤدده وحيائه، فقصر الذكر على الذبح، ولكنه سبحانه بين أن موسى عليه السلام ذكر كلاماً وأموراً غير الذبح يستحيي الله من ذكرها لكمال سؤدده، فتمت الإشارة إليها بـ **الواو** فقال: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ في معرض قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾[١] «فدل على أنواع غير التذبيح والاستحياء (إبقاء النساء أحياءً)، وعطف التذبيح والاستحياء عليها[٢].

فـ **الواو** المذكورة تدل على أمور ذكرها موسى عليه السلام إذ «سبق الذبح عذاب آخر[٣] «فمسهم العذاب غير التذبيح[٤]. أي «يعذبونكم بالتذبيح وبغير التذبيح[٥]. فلما نقل الله تعالى كلام موسى عليه السلام

(١) إبراهيم (٦).
(٢) المحرر الوجيز (١٠٤٨).
(٣) تفسير القرآن للسمعاني (٣/ ١٠٤).
(٤) الفراء في معاني القرآن (٢/ ٦٩).
(٥) ابن جرير (١٣/ ١٢٤)، الدر المصون (١/ ٣٤٦)، القرطبي (١/ ٣٨٤)، الفراء في معاني القرآن (٢/ ٦٩).

حذفت حياءً وسؤدداً. وهذه **الواو** التي تسمى **واو** الحذف تدل على ما وراءها.

هذه إشارات قرآنية تفهمها العرب وتعظمها لأنها تكني عن أمور أخرى لذا قال أحد بلغائهم وسيد من ساداتهم: «إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته»، والله أعلم.

جـ- هو في بيتها، وامرأة العزيز

في سورة يوسف قال الله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾[(١)] بينما قال سبحانه في موضع بعده: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾[(٢)] واللفظ الأول ﴿ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾ فيه إطالة في الكلام، بينما كان من الممكن أن يقال [وراودته امرأة العزيز] كما في الآية الثانية، فهل من حكمة من هذه الإطالة؟

هذا الكلام ليس فيه إطالة، بل فيه فوائد لا تتحقق فيما لو قيل [وراودته امرأة العزيز]:

أولاً: «المراودة أن تنازع غيرك فتريد منه غير ما يريد، وتتلطف في طلبه تلطف المخادع وتحرص عليه»[(٣)] «برفق ولين»[(٤)]. «وهكذا فعلت امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام إذ خادعته عن نفسه وراوغته ليتحقق لها مرادها منه مخالفاً لإرادته وإرادة ربه»[(٥)].

(١) يوسف (٢٣).
(٢) يوسف (٣٠).
(٣) تفسير المراغي (١٢/ ١٢٨).
(٤) القرطبي (٩/ ١٦٢).
(٥) تفسير المراغي (١٢/ ١٢٩) بتصرف .

ثانياً: لأن الله تعالى ستير يحب الستر فلم يذكرها بلفظ [امرأة العزيز] «فالعدول عن اسمها للمحافظة على الستر»[١] «وللإخفاء عن الآخرين لئلا يتهموها»[٢].

وإنما الذي ذكرها بهذا اللفظ نساء علية القوم ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾. لذا عندما أشار هزال إلى ماعز ليذهب إلى النبي ﷺ ليعترف له بالزنا فاعترف للنبي ﷺ فأقام الحد على ماعز قال النبي ﷺ لهزال: «يا هزال لو سترته بثوبك كان خيراً لك»[٣].

ثالثاً: يوسف عليه السلام كان في قصر العزيز ولم تسمح له امرأة العزيز بالخروج من القصر لشدة غيرتها على يوسف عليه السلام لئلا تراه امرأة أخرى ولئلا يرى هو امرأة غيرها لذا قال سبحانه: ﴿هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ فحرف **في** يفيد الاستقرار أي مستقراً في بيتها لم يخرج، فلو قال سبحانه: [راودته امرأة العزيز] لم يتحقق هذا المفهوم.

رابعاً: ثم «فيه زيادة تقرير بالمراودة لما فيه من فرط الاختلاط

(١) الجمل (٤/ ٢٢)، فتح القدير (٣/ ١٦).
(٢) إعراب القرآن للدرويش (٤/ ٤٧٠).
(٣) رواه أحمد (٥/ ٢١٧) والترمذي (٤٣٧٧، ٤٣٧٨)، وصححه الحاكم (٤/ ٣٦٣)، راجع الإرواء (٧/ ٣٥٨).

والإلفة[١] «إذ كونه ﴿فِى بَيْتِهَا﴾ مما يدعو إلى ذلك[٢] فقوله سبحانه: ﴿هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾ «فيه إشارة إلى خلوتها به فهو أنسب في الدلالة على الداعي لها[٣] لدعوتها إلى الفاحشة. ففيه تنبيه وتحذير من انفراد الرجال بالنساء كما قال النبي ﷺ: «إياكم والدخول على النساء[٤]، وقوله ﷺ: «لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم»[٥].

خامساً: لفظ ﴿هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾ «فيه إشارة إلى أن يوسف عليه السلام تحت تدبيرها والمسكن واحد يتيسر فيه إيقاع الأمر المكروه من غير شعور أحد ولا إحساس بشر»[٦].

سادساً: «ولإظهار كمال نزاهته عليه السلام، فإن عدم ميله لها مع دوام مشاهدته لمحاسنها واستعصائه عليها مع كونه تحت يدها ينادي بكونه عليه السلام في أعلى معارج العفة»[٧].

---

(١) إعراب القرآن للدرويش (٤/ ٤٧٣).
(٢) روح المعاني (١٢/ ٢١١).
(٣) الشهاب الخفاجي (٥/ ٢٨٦).
(٤) رواه البخاري (٥٢٣٢)، ومسلم (٢١٧٢).
(٥) رواه البخاري (٥٢٣٣)، ومسلم (١٣٤١).
(٦) السعدي (٥٢٧).
(٧) روح المعاني (١٢/ ٢١١). ونحوه للدرويش في إعراب القرآن (٤/ ٤٧٠).

سابعاً: كان لامرأة العزيز الكلمة الأولى في البيت، وقرارها يجري على زوجها، فلا كلمة للعزيز أمام كلمتها، فكأنها هي سيدة البيت، فالبيت بيتها لا بيت العزيز ﴿فِي بَيْتِهَا﴾، فالعزيز خاتم في يد امرأته تديره كما تشاء. لذا عندما تبين للعزيز أن زوجته هي التي راودت يوسف عليه السلام أغلظ على يوسف عليه السلام وقال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ بينما قال لزوجته: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾[1]، ثم سجن بعدها يوسف عليه السلام خضوعاً لرأي زوجته.

ثامناً: وربما أعرض عن وصفها [بامرأة العزيز] «استهجاناً»[2].

فلو قيل: [وراودته امرأة العزيز] لم نحصل على هذه الفوائد.

تاسعاً: أما قول النسوة ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ أردن أن يبالغن في ذمها وفي إشاعة الخبر «فأضفنها إلى زوجها إرادة لإشاعة الخبر، لأن النفس إلى سماع أخبار أولي الأخطار -ذوي الأحساب- أميل. وعبرن بالفعل المضارع ﴿تُرَاوِدُ﴾ لأن الإصرار على المراودة صار لها كالسجية. و﴿فَتَاهَا﴾ عبدها نازلة

(١) يوسف (٢٩).

(٢) الجمل (٤/ ٢٢)، فتح القدير (٣/ ١٦).

من افتراش العزيز إلى افتراشه. ﴿قَدْ شَغَفَهَا﴾ قد دخل حبه جلدها حتى أصاب قلبها، فذهب بها كل مذهب ذلك الفتى ﴿حُبًّا﴾[١]، «فقلن ذلك ذماً لها وطعناً فيها[٢].

عاشراً: «والاستنكار الذي تبدو فيه غيرة النسوة من امرأة العزيز أكثر مما يبدو فيه استنكار الفعلة[٣]، فقلن: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ ثم ذكرن فعلها: ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾ لا لشناعة فعلها ولكن غيرة منها.

الحادي عشر: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ فيه إظهار مكر النسوة حيث أردن الإظهار أن «هذا أمر مستقبح، هي امرأة كبيرة القدر وزوجها كبير القدر ومع هذا لم تزل تراود فتاها الذي تحت يدها وفي خدمتها[٤].

الثاني عشر: «وكذا ذكرنها بالتعيين لأنهن أردن بذلك أن يبلغ قولهن إليها فيغريها بعرضها يوسف عليه السلام عليهن فيرين جماله لأنهن أحببن أن يرينه[٥].

فاختلف اللفظان لاختلاف المتكلم، والله أعلم.

(١) نظم الدرر (٤/ ٣٤- بتصرف).
(٢) النكت والعيون للماوردي (٢/ ٢٦٣).
(٣) في ظلال القرآن (٤/ ١٩٥٥).
(٤) السعدي (٥٢٨).
(٥) الطاهر عاشور (١٢/ ٢٦٢)، غرائب القرآن (١٢/ ١٣٠).

د- رجعت ورددت

ذكر الله تعالى في سورة الكهف قول الكافر ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾[1] بينما في سورة فصلت ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾[2]. ما الحكمة من اختلاف اللفظ في الموضعين ﴿رُّدِدتُّ﴾ و﴿رُّجِعْتُ﴾؟

أولاً: سبق البيان أن **رجع** هو عود إلى الحال السابق أو عود إلى حال مماثل أو مقارب ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾[3] أي اجعلوني أعود إلى حالي السابق في الدنيا أو حال مماثل أو مقارب لما كنت فيه. وأحياناً يصاحب الرجوع سرورٌ وأحياناً يصاحبه حزن وأحياناً أخرى لا يصاحبه شيء من ذلك.

ثانياً: أما **الرد** فهو رجوع يصاحبه ما يُكره لأحد الأطراف. ففيه «من الكراهية للنفوس ما ليس في لفظ الرجوع»[4]. ربما من أجل ذلك قال الله تعالى ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ

(١) الكهف (٣٦).

(٢) فصلت (٥٠).

(٣) المؤمنون (٩٩).

(٤) كشف المعاني (٢٤٦).

(٥) النساء (٨٦).

﴿رُدُّوهَآ﴾(١)، ففي إجابة التحية بأفضل منها قال سبحانه: ﴿فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ﴾ لم يقل [فردوا بأحسن منها] بينما في إجابة التحية بالمثل لم يقل سبحانه [فحيوا بمثلها] وإنما قال: ﴿رُدُّوهَا﴾ لعل فيها إشارة إلى أن الإجابة بأحسن منها هو الذي يحبه الله تعالى، بينما يكره الاقتصار على الإجابة بالمثل الذي هو مجرد أداء واجب وقد تفضل عليه البادئ بالسلام بأن بدأه بينما المجيب مكافئ بل دونه. فالبادئ ذو اليد العليا إذ كان سبباً في إجابة المجيب فكان متفضلاً عليه، ويكره للإنسان أن يكون للآخرين فضل عليه لقوله ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى»(٢). ولذا أوجب النبي ﷺ أقل أحوال الإجابة أن يرد السلام بالمماثلة وفيه من الكراهة ما فيه فقال: «خمس تجب للمسلم على أخيه: رد السلام...» الحديث(٣)، وكذا في إعطاء الطريق حقه قال ﷺ: «رد السلام»(٤) والله أعلم.

ثالثاً: آية فصلت ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ وردت في سياق وصف النفس البشرية عامة ووصف أغلب أحوال الناس ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن

(١) رواه البخاري (١٤٢٧).
(٢) رواه مسلم (٢١٦٢).
(٣) رواه البخاري (٦٢٢٩).
(٤) فصلت (٤٩).

دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾[١]، وأنه ينسى اللهَ تعالى المنعمَ عليه والذي أنقذه من المصائب وتفضل عليه ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾[٢] كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾[٣] ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾[٤] وكما قال سبحانه في هذه السورة بعد الآية السابقة: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾[٥].

يشعر كثير من الناس مسلمهم وكافرهم أن الله تعالى لم يعطه في الدنيا إلا لكرامته عنده ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾[٦] وهذه الصفة المذكورة في آية فصلت «توجد في المؤمنين ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ وبها افتتح الآيات بالوصف المضروب به المثل في هذه الآية ثم قال بعدما ذكر من كلامه: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾[٧].

(١) فصلت (٥٠).

(٢) العلق (٦).

(٣) يونس (١٢).

(٤) فصلت (٥١).

(٥) الفجر (١٥).

(٦) ملاك التأويل (٢/ ٦٤٦).

لذا قال فيها: ﴿هَٰذَا لِى﴾ أي أنا استحقه، ويعلم الله أني استحق ذلك، وهو يحبني وإلا لما أعطانيه ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾ فمنحنيه كرامة لي، وإذا كانت لي كرامة عند الله في الدنيا فكذا لي كرامة عنده في الآخرة إن رجعت إليه وقامت الساعة. وأما الكافر فيقولها إما استهزاء أو مجادلة وإقامة للحجة على المؤمن الذي يدعوه إلى الإيمان ويحذره من العقوبة يوم القيامة.

أما قوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ فالكافر يقولها شاكاً بل مكذباً بها، أما المسلم فإنه لعظم اللهو الذي هو فيه وغفلته وغيابه في زينة الدنيا فإنه يقولها تسويفاً وإطالة للأمل ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ الآن فهذا ليس أوان قيامها إذ لم تظهر أشراطها ومازلت في شبابي وصحتي وقوتي، فأمامي سنون كثيرة ألهو بها، أما التوبة فتؤجل إلى سن الشيخوخة وقبل الممات فما أظن الساعة ستقوم الآن ولا موتي قريب.

فهذه أحوال أغلب الناس عند إصابتهم بالسراء والضراء والخير والشر والنعم والمصائب، بل كثير من المسلمين ينتابهم هذا الشعور إلا فيما يتعلق بنفي قيام الساعة. وقد يتلفظ بعض المسلمين ألفاظ الكفر إذا اشتدت عليه المصائب بالرغم من إيمانه بالله واليوم الآخر

وإن كان الكافر أشد ضلالة وكفراً إذ كفره أصلي.

لذا قوله في آية ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ يظن أنه لو رجع إليه فإنه له الخير المدخر وله الحسنى عنده لما له من الكرامة التي ظهرت في الدنيا، فلا يلزم من رجوعه إليه أن يكون فيه نقصان للترف والنعمة الدنيوية التي يتقلب بها، بل إن كان في الآخرة خير كثير فإن له النصيب الأوفر لأنه أوفر حظاً في الدنيا فناسب قوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾. فلفظ **رجع** «لا يحتمل ولا يفهم منه معنى القهر والتعنيف[1] «وليس فيه ما في لفظ **رد** من كراهة[2]. فآية **فصلت** تحتمل العودة إلى الله مع الكرامة الإلهية كما هي في الدنيا وتحتمل الكراهة لذا وردت ﴿رُّجِعْتُ﴾.

رابعاً: أما المتكلم في سورة الكهف فهو رجل كافر متنعم مترف، يخشى مفارقة جنته طرفة عين ﴿... جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾[3].

(١) المرجع السابق.
(٢) درة التنزيل (٢٨٢).
(٣) الكهف (٣٢).

لذا في كل المجالس يفاخر غيره «بما تقدم من وصف الجنتين اللتين حوتا مراده واشتملتا على ما أراده»(١) قائلاً: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾، وكلما دخل جنته ورآها غاب الفكر فيها قائلاً: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا﴾ لشدة تعلقه بها وكراهية مفارقتها، وإذا فارقها فإنه لا يفارقها إلا بقوة خارقة قاهرة تكرهه على مفارقتها إضافة إلى يقينه بوحدانية الله وقيام الساعة إلا أنه جحده وكره لقاء الله تعالى خشية المحاسبة وسيتحقق رغماً عنه، وأنه لما تلفظ بها: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا﴾ أراد إظهار الاستخفاف بالمؤمن استهزاءً بدعوته ليكف عن تذكيره بما يكرهه كحال كبار قريش من الكفار الذين يوقنون بدعوة النبي ﷺ لكنهم جحدوا بها كحال آل فرعون ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾(٢). «فلما كان فيه أنه ينقل عن جنته وهو خلاف محبته كان استعمال اللفظ الذي يدل على الكراهة فيه أولى(٣).

«فناسب آية الكهف قوله ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ﴾ لما يشعر لفظ ﴿رُّدِدتُّ﴾

(١) درة التنزيل (٢٨٢).
(٢) النمل (١٤).
(٣) درة التنزيل (٢٨٢)، كشف المعاني (٢٤٦- ٢٤٧)، روح المعاني (١٥/ ٢٧٦).
(٤) ملاك التأويل (٢/ ٦٤٦).

ويحتمله من القهر والتعنيف»[1] «إذ الرد عن الشيء يتضمن كراهية للمردود»[2] «ومن الكراهة للنفس ما ليس في لفظ الرجوع»[3].

خامساً: «لما وصف صاحب **الكهف** جنته بغاية المراد بالجنان كانت مفارقته لها أشد على النفس من مفارقة صاحب **حم فصلت** لما كان فيه، لأنه لم يبالغ في وصف ما كان فيه كما بالغ صاحب الكهف. فناسب ذلك لفظ الرد في الكهف ولفظ الرجوع في حم فصلت[4].

فالمتكلم في آية **فصلت** المسلم والكافر، بينما المتكلم في آية **الكهف** كافر، فلما اختلف المتكلم اختلف اللفظ، والله أعلم.

(١) درة التنزيل (٢٨٢).
(٢) كشف المعاني (٢٤٦).
(٣) كشف المعاني (٢٤٦-٢٤٧).

٦- المناسبة المعنوية للسياق

إن كلام العظماء للرعية يتضمن الأصل الواضح البين ليفهمه جميع الناس، ويتضمن مُلَحاً من العلم يعرفه من تدبر كلامهم وقرأه بعناية وقلب حاضر. وكلام الله تعالى لا يضاهيه كلام، لذا فهو أولى بالعناية والتدبر وقراءته بقلب حاضر وعقل واع. ولمعرفة سر الفروق في الآيات المتشابهة ينبغي معرفة الموضوع الذي يدور حوله الكلام والمناسبة المعنوية للسياق، من ذلك:

أ- تحتهم وتحتها

في أغلب سور القرآن إذا ذكر الله تعالى الجنة أولاً ثم ذكر أهلها فإنه يقول سبحانه: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ من تحت الجنة إذ الأنهار تجري في أخاديد، بينما في سور قليلة يقول سبحانه: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾[1] أي من تحت أهل الجنة كما في سورة الأعراف والكهف. فما الحكمة من هذا الاختلاف؟

---

(١) الأعراف (٤٣)، الكهف (٣١).

أما قوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ أي تجري الأنهار على أرض الجنة في أخاديد ومجارٍ كقول فرعون لقومه: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾[1] تجري في أخاديد ومجارٍ تحت قدميّ، وهذا الأصل إذا ذكرت أنهار الجنة.

أما ما ورد في سياق سورة الكهف فإنها تشير إلى اجتماع المؤمنين في الجنة والتقائهم ببعضهم على قلب واحد وتزاورهم ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾. إن كفار قريش لما رأوا في أنفسهم أنهم أهل شرف وجاه أنفوا من مجالسة الضعفاء والفقراء، فأرادوا أن تستمر الطبقية في الإسلام فيكون لأهل الشرف والجاه مجلس وللفقراء والضعفاء مجلس آخر فتتفرق القلوب وتتقطع الأمة الواحدة، لذا قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «كنا مع النبي ﷺ ستة نفر: أنا وابن مسعود وبلال ورجل من هذيل ورجلان. فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء، لا يجترئون علينا. فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدّث نفسه، فأنزل الله عز وجل ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[2].

لذا قال تعالى في الكهف: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم

(١) الزخرف (٥١).

(٢) الأنعام (٥٢)، رواه مسلم (٢٤١٣).

بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[1] أي خالطهم بجسدك وروحك لا تفارقهم عيناك، فإياك أن تلتفت عنهم، ولا تقل: إني قد خالطتهم بجسدي فلا بأس أن تلتفت عيناي عنهم وأتوجه إلى الأغنياء فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾[2] بل كونوا أمة واحدة متآلفة مجتمعة على قلب واحد في الدنيا يجمعكم مجلس واحد ليجمعكم الله يوم القيامة في مجلس واحد عنده في الفردوس الأعلى، فقال سبحانه: ﴿مِن تَحْتِهِمُ﴾ للدلالة على اجتماعهم في الجنة وتزاورهم على ضفاف الأنهار كما اجتمعوا وتزاوروا في الدنيا على ضعفهم وفقرهم وبالرغم من أن «ثيابهم وجبابهم تفوح منها رائحة العرق ولكنها تضم القلوب الزكية بذكر الله تعالى»[3].

«وكذا أضيفت **تحت** إلى المؤمنين للتعريض بإغاضة المشركين لتتقرر بشارة المؤمنين أتم تقرير»[4]. بينما ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ لا تحقق الموضوع الذي سيقت فيه هذه الآيات.

وكذا في سورة الأعراف لما بين الله تعالى أنه ينزع من صدور

(١) الكهف (٢٨).
(٢) الكهف (٢٨).
(٣) في ظلال القرآن (٤/ ٢٢٧٠).
(٤) الطاهر عاشور (١٥/ ٣١١).

المؤمنين الغل قبل دخولهم الجنة «حتى تصفو قلوبهم ويود بعضهم بعضاً»[١] حينئذ «تمت لهم النعمة»[٢]. فتصبح قلوبهم على قلب رجل واحد يجمعهم الحب والمودة في مجلس واحد «فسلمت قلوبهم وطهرت ولم يكن بينهم إلا التواد والتعاطف»[٣]. فوردت: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[٤] على ضفاف الأنهار فيرونها «تتدفق في جناتها وبساتينها فيزدادون حبوراً لا تشوبه شائبة كدر»[٥]، بينما القلوب المتفرقة لن يجمعهم مجلس واحد.

ففي سياق الكلام عن اجتماع القلوب وتآلفها يقول سبحانه: ﴿مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ لذا قال علي رضي الله عنه: «إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم».

فاختلف اللفظان لاختلاف سياق الكلام، والله أعلم.

---

(١) فتح القدير (٢/ ٢٠٦).

(٢) نظم الدرر (٣/ ٣٤).

(٣) الكشاف (٢/ ٦٢).

(٤) الأعراف (٤٣).

(٥) مختصر المنار لرشيد رضا (٣/ ٣٣).

ب- الفرار والفداء

ورد في سورة عبس ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾[(١)] فذكر الأخ قبل الأم والأب، وجعل الأبناء والزوجة آخر المذكورين في المرحلة الأخيرة. بينما في سورة المعارج ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾﴾[(٢)] فقدم ذكر الأبناء ثم الزوجة ثم الأخوة عكس الترتيب في الآية الأولى، ولم يُذكر فيها الوالدان الأم والأب؟

أولاً: آية **عبس** تتكلم عن الفرار طلباً للنجاة، فالإنسان لحظة المصيبة والأهوال غير المتوقعة يصيبه الذهول فيهرب بلا شعور «لاشتغاله بنفسه»[(٣)]. فذكر الله تعالى القرابة على حسب شدة الالتصاق ترتيباً تصاعدياً «فلما كان السياق للفرار قدم أدناهم رتبة في الحب والقرب فأدناهم على سبيل الترقي[(٤)]»، فذكر الفرار من الأخ على الرغم مما بينهما من المحبة والتوافق والعصبية، ولبيان شدة الهول فإن الذهول لم يقتصر على الأخ وإنما تعدى إلى الفرار

(١) عبس (٣٤).
(٢) المعارج (١١).
(٣) النكت والعيون للماوردي (٤/ ٤٠٤).
(٤) نظم الدرر (٨/ ٣٣٣)، غرائب القرآن (٣٠/٣٠).

عن الوالدين، ثم لم يقتصر على الوالدين إذ الرجل قد يفارق والديه في السكن بعد زواجه ليلتصق بالزوجة والأبناء، بل تعداه الفرار عن الصاحبة. ولم يقل الزوجة لأنه قد تستمر الحياة الزوجية مع شيء من التباغض وعدم الحب، فذكر أشد أنواع الارتباط بين الزوجين وذلك إذا أصبحت الزوجة عشيقة، فهذا معنى **الصاحبة** لشدة مصاحبتها لزوجها. وبالرغم من ذلك قد يتخلى الرجل عن زوجته ويطلقها ولكنه لا يتخلى عن أبنائه الذين هم قطعة منه وفلذة كبده، ولكنه لشدة الأهوال يوم القيامة يفر منهم. فأتى الترتيب تصاعدياً مناسباً لحال الفرار من المصيبة العظيمة «كأنه قيل: يفر من أخيه بل من أبويه بل من صاحبته وبنيه[1]. «وقيل: هذا الفرار هو خوف من أن يتبع بعضهم بعضاً بتبعات، إذ الملابسة تعلق المطالبة[2].

ثانياً: أما آية **المعارج** فتتكلم عن الفداء، وهو أن يفتدي الرجل نفسه من العذاب إذ غلب عليه «الرعب الذي يذهب بنفسه، فهي صورة للهفة الطاغية والفزع المذهل والرغبة الجامحة في الإفلات، صورة مبطنة بالهول مغمورة بالكرب موشاة بالفزع[3].

(١) روح المعاني (٣٠/ ٤٨).

(٢) المحرر الوجيز (١٩٥٠).

(٣) في ظلال القرآن (٦/ ٣٦٩٧).

ففي المرحلة الأولى لشدة الهول فإن الرجل يود لو يفدي نفسه بما يملك لا بما لا يملك، فالذي يملكه ولا ينفك عنه هم الأبناء، إذ الزوجة قد تطلّق وقد تخلع نفسها بينما الأبناء هم في ملك أبيهم، فيفدي نفسه بما يملك وهم الأبناء وله الجرأة عليهم بالافتداء بهم، ولكن هذه الفدية لا تقبل.

حينئذ تعظم عنده الجرأة لما يراه من شدة الهول والفزع، فيتوجه إلى المرحلة الثانية دونها في الملكية وهي الزوجة إذ يملك بضعها وقد عقد عليها فيتجرأ عليها ويتعدى ليفتدي بها، فيظن أنه بإضافتها إلى الأبناء سيترجح جانب الفداء ويقبل، ولكنه لا يقبل منه.

حينئذ يزداد ذهوله ورعبه فيتوجه إلى المرحلة التي تليها وهي الرابطة الأبعد والتي أعلاها الوالدان، لكن الوالدين لعظم حقوقهما فإنه يُفْدَون ولا يفتدى بهم، فهم أجل من الافتداء بهم، بل هو من أقبح القبائح وهو الأمر الذي لا يتلفظ به ولا يخطر في ذهن الإنسان أن يفتدي بوالديه، فضرب الله صفحاً عن ذكرهم لبيان عظم قدرهما، وأنهم أجل من أن يفتدى بهم ولو بلغ الأمر ما بلغ، فعدل عن ذكرهم. ولكن الرجل لشدة الهول تجرأ على الأخوة وتعدى عليهم وهم في المرحلة الثالثة دون الزوجة والأولاد في الملكية وطلب الافتداء بهم فقال: ﴿وَأَخِيهِ﴾ ليضيفهم إلى الأولاد والزوجة في

الفداء، ولكن لا ينفعه هذا الفداء.

ثم أغلق على عقله وقد بلغ مرحلة السكر فتجرأ إلى الأبعد يريد أن يتعلق ولو بشعرة للخلاص من شدة الهول فتجرأ على القبيلة فقال: ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾﴾، كحال من يهوي من الأعلى فإنه يتعلق بخيط لينجو.

فالفداء أولاً يكون بالألصق وأقلهم حاجزاً بينه وبينهم، فلابد وأن يكون الترتيب في الفداء تنازلياً من الألصق إلى الأبعد جرأة لبيان شدة الهول وأن الناس في حالة سكر ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[1]، بينما الترتيب في الفرار يكون أولاً من الأبعد إلى الألصق لبيان شدة الهول أن وصل به الفرار من ألصق الناس به وأشدهم تعلقاً به. فاختلف اللفظان لاختلاف سياق الكلام، والله أعلم.

(١) الحج (٢).

جـ- العباد والعبيد

قد يقف القارئ حائراً عند لفظ **العباد** في بعض الآيات لورودها في آيات أخرى بلفظ **العبيد** والمعنى واحد، فلماذا هذا التنويع؟ إن بين اللفظين فرقاً لطيفاً في المعنى، ويمكن معرفة هذا الفرق بقراءة سياق الآيات الواردة في كل منهما ومناسبتها.

أولا: «العبيد» هذا اللفظ يرد في سياق «التحقير»[١] إذ ورد في القرآن في حق المعذبين والكفار والفجار فقال الله تعالى مخاطباً الكفار: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾[٢] «هم في هذا الموقف الذليل ضعفاء لا ناصر لهم، مجردون من كل حول وقوة، فكان لفظ **العبيد** هو الذي يجسد وحدة ذلتهم وضعفهم وعجزهم عن فك رقابهم من عذاب الله، وفي نفس الوقت يجسد عدل الله تعالى الذي لا يتناهى حين ينصفهم مع شدة غضبه عليهم ولا يقابل ظلمهم بظلم مثله[٣]. لذا ربما يأتي ذكر الذنب والعذاب ملازماً للفظ العبيد ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ

(١) المحرر الوجيز لابن عطية، الإعجاز البياني د. الخضري (١٧٥).

(٢) سورة ق (٢٨).

(٣) الإعجاز البياني (١٧٨- ١٧٩) د. محمد الأمين الخضري.

لِّلۡعَبِيدِ﴾[1]، وقال سبحانه لليهود لما ذكر قتلهم الأنبياء وقولهم الشنيع: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ١٨١ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٨٢﴾[2]. فلفظ العبيد «إعلام بضعف وعدم قدرة على انتصار»[3]، «لذا لا يأتي لفظ العبيد إلا مع نفي الظلم عن الله تعالى لبيان أنه لا يعاقب أحداً إلا بذنب، ولا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول له[4]، فيأتي مقاروناً للعقوبة.

ثانياً: أما «العباد» فيرد هذا اللفظ فيمن له عظمة ومكانة وقدر، فيرد «في مضمار الترفيع... دون أن يقترن به معنى التحقير وتصغير الشأن[5]، فإن كانت هذه العظمة دينية ذكره الله تعالى بقوله «عبادنا لذا قال الله تعالى في حق كل نبي مذكور في سورة الصافات ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨١﴾[6] ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠﴾[7] ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ

(١) فصلت (٤٦).
(٢) آل عمران (١٨١).
(٣) نظم الدرر (٦/ ٥٨٣-٥٨٤).
(٤) ابن كثير (فصلت: ٤٦).
(٥) ابن عطية المحرر الوجيز، الإعجاز البياني د. الخضري (١٧٤).
(٦) الصافات (٨١).
(٧) الصافات (٤٠).

﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾[(١)]. وكذا وردت فيمن كان على أصله وفطرته ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ﴾[(٢)] أي لما كانوا على فطرتهم حنفاء على التوحيد ءأنتم أضللتموهم؟!

وكذا إذا كان السياق في بيان أن العظمة دنيوية يقول سبحانه: ﴿عِبَادًا﴾[(٣)]. إذ قال سبحانه فيمن ملك بلاد فارس والشام وهو بختنصر المجوسي: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾[(٤)] فقوله سبحانه فيهم ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ «أي لا يدان لكم بهم[(٥)].

ثالثاً: لماذا يأتي لفظ «العباد» لأصحاب المكانة بينما «العبيد» للوضيع والمعذب؟ ذلك لأن طريقة لفظ الكلمة تناسب معناها. فلوصف من كانت له مكانة رفيعة عالية جاء اللفظ «عباداً» فيه حرف الألف للدلالة على «الرفعة وانتصاب القامة[(٦)] والعلو. بينما

(١) سورة ص (٤٥).
(٢) الفرقان (١٧).
(٣) الإسراء (٥).
(٤) الإسراء (٥).
(٥) نظم الدرر (٤/ ٣٣٦).
(٦) الإعجاز البياني (١٧٤) د. محمد الخضري.

في صاحب السفول والحقير والوضيع جاء لفظ «عبيد» لأنه في الدركات السفلى إذ فيه حرف الياء الذي يجره إلى الأسفل، فناسبت الألفاظ معانيها.

ففي سياق الرفعة وردت ﴿عِبَادٌ﴾ وفي سياق الوضاعة والسفول وردت ﴿عبيد﴾، فاختلف اللفظ للمناسبة المعنوية للسياق، والله أعلم.

د- العزيز الحكيم الغفور الرحيم

١- ورد في سورة الممتحنة قول الخليل إبراهيم ﷺ ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾ فمن المتوقع أن تكون [إنك أنت الغفور الرحيم] إذ أغلب الآيات التي ترد فيها المغفرة تنتهي بـ ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، فلماذا ختمت هذه الآية بـ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ بدلاً من الغفور الرحيم؟

أولاً: سياق الآيات وارد في عدم موالاة الكفار وعدم مودتهم لقول الله تعالى في أول السورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾(١) فلا تتعزوا بموالاتهم لذا وجب علينا البراءة منهم، وإنما نتعزز بموالاتنا لله تعالى ولو تخلينا عن العالم أجمع من حيث الموالاة والمودة. لذا ذكر الله تعالى قصة إبراهيم ﷺ وقوله ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾(٢)، لذا التجأ إبراهيم ﷺ إلى الله وحده وتوكل عليه وحده فتعزز به لا بغيره فأعزه الله تعالى عليهم ﴿... رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ

---

(١) الممتحنة (١).

(٢) الممتحنة (٤).

ٱلۡحَكِيمُ﴾[1].

وكذا المؤمنون إذا تبرأوا من الكفار لوجه الله تعالى أعزهم وهكذا كان لما «تشدد المؤمنون في عداوة آبائهم وأبنائهم وجميع أقربائهم من المشركين ومقاطعتهم، فلما رأى الله ﷻ منهم الجد والصبر على الوجد الشديد وطول التمني للسبب الذي يبيح لهم الموالاة والمواصلة رَحِمَهم فوعدهم بتيسير ما تمنوه، فلما يسر فتح مكة أظفرهم الله بأمنيتهم فأسلم قومهم[2].

ثانياً: طلب المغفرة بقولهم ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَآ﴾ مرتبطة بالموالاة والمعاداة في الله تعالى إذ قد تضعف النفس فتود الكفار أو تواليهم بسبب تسلط الذنوب على القلب، فالذل قرين الذنوب.

رأيت الذنوب تميتُ القلوبَ وقد يورث الذلَّ إدمانُها
وترك الذنوب حياة القلوب وخيرٌ لنفسك عصيانها

فطلب المغفرة ما هو إلا طلب المزيد من الإعانة الإلهية لتتم الموالاة والمودة في الله تعالى والمعاداة والبراءة في الله على أكمل وجه.

(١) الممتحنة (٤-٥).
(٢) الكشاف (٤/٨٧-٨٨).

ثالثاً: أحياناً يتبرأ المسلم من موالاة الكفار ومودتهم ولكنهم يتسلطون عليه بسبب ذنوبه، «فلما كان المؤمنون يعلمون أن ما يصيبهم من مصيبة إنما هي مما كسبت أيديهم سألوا المغفرة من مجترحاتهم»[(١)] ليعينهم على طاعته في الموالاة والمعاداة في الله ويمنع تسلطهم عليهم لذا وردت الآية بقولهم ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ للبيان أن «مقصدهم إنما هو أن يندفع عنهم ظهور الكفار[(٢)] بل وينصرهم عليهم. فكأن قولهم ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ يتضمن «فانصرنا على أعدائنا»[(٣)].

فكان طلب المغفرة تبعاً للتعزز بالله تعالى فقال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، فناسب دعاءهم **ذكر العزة والحكمة.**

رابعاً: «﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ مبني على قولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فإن المراد لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على الحق فيكون سبب فتنتهم، فلا تفعل ذلك بنا فأنت القادر على كفهم ونصرنا عليهم فإنك أنت العزيز الذي لا معارض لما تريده ولا مانع مما تشاؤه؟[(٤)].

---

(١) ملاك التأويل (١/ ٢٧٨).

(٢) المحرر الوجيز (١٨٤٨).

(٣) السعدي (١١٩٢).

(٤) ملاك التأويل (١/ ٢٧٨).

فائدة: ينبغي التفريق بين المودة والمحبة، فقد أحب النبي ﷺ أمه وزار قبرها وأحب عمه أبا طالب، فدل على جواز محبة الكفار ولكن لا تجوز مودتهم. فالمحبة درجات، ومن درجاتها المودة. إذ المودة من مراتبها العلى فهي المحبة الخالصة، وهذه لا تجوز لغير المسلم بينما يجوز ما دونها قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾(١) فتحظر المودة لغير المسلم، بينما لم يرد ما يحرم محبتهم ما دون المودة.

٢- وكذا ورد في سورة التوبة اسمان لله تعالى كأنهما لا يتناسبان مع سياق الآية، في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾(٢). إذ من المتوقع أن تنتهي الآية [إن الله غفور رحيم] بعد قوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾، فهل من مناسبة؟

أولاً: ينبغي أن ينظر إلى سياق الكلام الذي تدور حوله الآية.

---

(١) المجادلة (٢٢).

(٢) التوبة (٧١).

بين الله تعالى في الآيات التي قبلها براءته من المنافقين والكفار ثم ذكر بعدها ولاية المؤمنين لبعضهم وأنهم يد واحدة، وذكر طاعتهم لله تعالى وعبادتهم له. فلكونهم يداً واحدة فهم يمثلون قوة أمام أعدائهم، ولئلا يتطرق إلى ذهن المؤمن أن الله تعالى يتعزز بهذه القوة ولئلا يظن أن الله تعالى محتاج إلى معين وإلى قوتهم لذا بين الله تعالى أنه ﴿عَزِيزٌ﴾ بذاته ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾[1]. ولحكمة ما اختارهم ليكونوا عباداً له، ولحكمته ألَّف بينهم وجعلهم يداً واحدة فهو ﴿حَكِيمٌ﴾ بذاته سبحانه فوردت ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

ثانياً: هذه الولاية بين المؤمنين «فقيرة إلى الإعانة الإلهية، فـ﴿ٱللَّهَ﴾ الذي له الإحاطة الكاملة ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب لا يغلب بوجه، فهو قادر على نصر من يوالي حزبه وأن ينيله من ثمرات الرحمة ما يريد من غير أن يقدر أحد على أن يحول بينه وبين شيء من ذلك، ﴿حَكِيمٍ﴾ لايقدر أحد على نقض ما يحكمه وحل ما يبرمه، وفي ذلك إشارة إلى أن المؤمنين لا يزالون منصورين على كل مفسد ما داموا على هذه الخلال من الموالاة وما معها من حميد

(١) الإسراء (١١١).

الخصال[١]. قال النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون»[٢]، وقال ﷺ: «لا تزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك»[٣].

ثالثاً: «إن تلك الصفات لهي التي وعد الله المؤمنين عليها بالنصر والتمكين في الأرض ليحققوها في وصايتهم الرشيدة على البشرية... فالله قادر على إعزاز الفئة المؤمنة ليكون بعضها أولياء بعض في النهوض بهذه التكاليف، حكيم في تقدير النصر والعزة لها لتصلح في الأرض وتحرس كلمة الله بين العباد»[٤]، والله أعلم.

(١) نظم الدرر (٣/ ٣٥٩) بتصرف.
(٢) رواه البخاري (٣٦٤٠).
(٣) رواه البخاري (٣٦٤١).
(٤) في ظلال القرآن (٣/ ١٦٧٦).

هـ - موقف نبي الله عيسى عليه السلام يوم القيامة

استوقفتني آية؛ ذكر الله تعالى فيها المغفرة فتوقعت أن تنتهي بـ [الغفور الرحيم] ولكنها انتهت بـ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وهي قول نبي الله عيسى عليه السلام لله تعالى عن المؤمنين: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[1]، فما الحكمة؟

أولاً: هذا الكلام من النبي عيسى عليه السلام يصدر يوم القيامة إذ قال الله تعالى له: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾[2] ثم قال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[3].

ثانياً: «قوله ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ هذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى في مثل هذا المقام. فشأن السيد رحمة عبيده والإحسان إليهم، وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيداً لغيرك، فإن عذبتهم -مع كونهم عبيدك-

(١) المائدة (١١٨).

(٢) المائدة (١١٦).

(٣) المائدة (١١٧-١١٨).

فلولا أنهم عبيد سوء من أنجس العبيد وأعتاهم على سيدهم وأعصاهم له لَمْ تعذبهم، لأن قربة العبودية تستدعي إحسان السيد إلى عبده ورحمته، فلماذا يعذب أرحم الراحمين وأجود الأجودين وأعظم المحسنين إحساناً عبيده لولا فرط عتوهم وإبائهم عن طاعته وكمال استحقاقهم للعذاب فـ ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾[1] فهم عبادك وأنت أعلم بسرهم وعلانيتهم، فإن عذبتهم عذبتهم على علم منك بما تعذبهم عليه فهم عبادك وأنت أعلم بما جنوه واكتسبوه. فليس في هذا استعطاف لهم كما يظنه الجهال، ولا تفويض إلى محض المشيئة والملك المجرد عن الحكمة، وإنما هو إقرار واعتراف وثناء عليه سبحانه بحكمته وعدله وكمال علمه بحالهم واستحقاقهم للعذاب[2].

ثالثاً: ثم قال نبي الله عيسى عليه السلام: ﴿وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ ولم يقل: [الغفور الرحيم] وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى، فإنه قاله في وقت غضب الرب عليهم والأمر بهم إلى النار، فليس هو مقام استعطاف ولا شفاعة، بل مقام براءة منهم. فلو قال: [فإنك أنت الغفور الرحيم] لأشعر باستعطافه ربه على أعدائه الذين قد اشتد غضبه عليهم. فالمقام مقام موافقة للرب في غضبه

(١) المائدة (١١٦).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٣٧٨-٣٧٩)، تفسير السعدي (٣٠٨).

على من غضب الرب عليهم، فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلى ذكر العزة والحكمة المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم.

والمعنى: إن غفرت لهم فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم، ليست عن عجز عن الانتقام منهم ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم. وهذا لأن العبد قد يغفر لغيره لعجزه عن الانتقام منه ولجهله بمقدار إساءته إليه. والكمال هو مغفرة القادر العالم وهو العزيز الحكيم. فكان ذكر هاتين الصفتين في هذا المقام عين الأدب في الخطاب[(١)]، «فقاله عيسى عليه السلام على وجه التسليم لأمر الله والانقياد له[(٢)].

فتلخص مما سبق «أن وصفه سبحانه بالعزة والملكية والحكمة فإنما يراد به حيث يراد معنى الاقتدار.. وإحاطة العلم وإفراده سبحانه بالخلق والأمر والربوبية والتعالي وما يرجع إلى هذا[(٣)]. «فالآية مبنية على التسليم لله سبحانه وأنه المالك للكل يفعل فيهم ما يشاء... وإنما قيل ذلك على لسان عيسى عليه السلام تبرياً وتسليماً لله

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٧٩).

(٢) فتح القدير (٢/ ٩٥).

(٣) ملاك التأويل (١/ ٢٧٦- ٢٨٠).

سبحانه وليس موضع طلب مغفرة لهم. . . إذ ليس الكلام وارداً مورد الاستلطاف[١]، وإنما هو تنصل من حالهم وتسليم لله فيهم[٢].

رابعاً: قال الغزنوي: «ولأن في ذكر العفو تعويضاً للسائل فكأنه قال: فالمغفرة لا تنقص من عزك ولا تخرج من حكمتك»[٣].

خامساً: «ثم أنت ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾، فلا أحد يعترض عليك ولا ينسبك إلى وهن. ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ فلا تفعل شيئاً إلا في أعلى درج الإحكام، ولا قدرة لأحد على تعقيبه ولا الاعتراض على شيء منه»[٤]. والله أعلم.

(١) ملاك التأويل (١/ ٢٧٩).
(٢) ملاك التأويل (١/ ٢٧٨).
(٣) ملاك التأويل (١/ ٢٧٨).
(٤) نظم الدرر (٢/ ٥٧٦).

و- أذلة على المؤمنين

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(١). فالعلو في قوله سبحانه: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يناسب العزة، بينما الذل يناسبه «لام الاختصاص» فتقول: ذل لفلان كما قال الله سبحانه عن تذليل الأنعام للناس: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾. فأين مناسبة العلو للذل في قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذ لم يقل سبحانه: [أذلة للمؤمنين]؟

أولاً: حرف ﴿عَلَى﴾ يفيد العلو بينما حرف اللام يفيد الاختصاص.

ثانياً: وردت هذه الآية في سياق المدح والثناء وبيان علو مقام المتحابين في الله والمتآخين في جلاله وعلو قدرهم عند الله تعالى. إذ رباط الأخوة في الله تعالى من أوثق الروابط، بل لا انفصال له في الدنيا ولا في الآخرة كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾(٢).

لذا حث النبي ﷺ على توثيقها فقال: «ما تحاب اثنان في الله

(١) المائدة (٥٤).

(٢) الزخرف (٦٧).

تعالى إلا كان أفضلهما أشدهما حباً لصاحبه»[١]. فكلما بذل الأخ لأخيه في الله ازداد قرباً من الله تعالى سواء كان البذل من ماله أو نفسه لقول الله تعالى في الحديث القدسي: «حقت محبتي على المتباذلين فيّ»[٢].

فمن سبق أخاه فتنازل له وبذل نفسه ليتصافى معه ويزيل ما حال بينهما من كدر كان أرفع وأفضل عند الله تعالى، بل هو أولى بالله من أخيه لقول النبي ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»[٣]. فلئلا يشعر أنه لما ذلل نفسه لأخيه أصبح في مرتبة أدنى قال تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فهو أرفع منه لأنه تواضع لله تعالى فرفعه الله ﷻ على أخيه وقد قال النبي ﷺ: «ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[٤].

لذا في حال تذلُلِ الأخ لأخيه يصبح في مرتبة أعلى منه لأنه بذل نفسه لله تعالى فرفعه، إذ «ساعة يكون في ذلة لأخيه المؤمن فهذا يرفع من قدره»[٥]. «فقد شرفتهم فضيلة التواضع وغلبوا غيرهم من

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٥٤٤)، وصححه ابن حبان (٥٦٦) والألباني.
(٢) رواه أحمد (٥/٣٢٨) و (٤/ ٣٨٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع.
(٣) رواه البخاري (٦٠٧٧، ٦٢٣٧).
(٤) رواه مسلم (٢٥٨٨).
(٥) تفسير الشعراوي (٥/ ٣٢١٤).

المؤمنين في التواضع[١] «حتى عَلَوْهم بهذه الصفة»[٢] فقال سبحانه في حقهم: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ولما سئل النبي ﷺ: يا رسول الله! الرجلان يلتقيان، أيهما يبدأ بالسلام؟ قال ﷺ: «أولاهما بالله»[٣].

ثالثاً: «لما كان الذل منهم ذل رحمة وعطف وشفقة وإخبات عدّاه بأداة ﴿عَلَى﴾ تضميناً لمعاني هذه الأفعال، فإنه لم يرد به ذل الهوان الذي صاحبه ذليل... قال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[٤].

الخلاصة: «لما كان هذا الذل صادراً عن الرفق ولين الجانب لا الهوان كان في الحقيقة عزاً فأشار إليه بحرف الاستعلاء مضمناً له معنى الشفقة فقال: ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مبيناً أن تواضعهم عن علو منصب وشرف»[٥]، والله أعلم.

* * *

(١) الشهاب الخفاجي (٣/ ٤٩٧).

(٢) روح المعاني (٦/ ١٦٣).

(٣) رواه الترمذي (٢٦٩٤) وحسنه، وصححه الألباني.

(٤) الفتح (٢٩)، بدائع التفسير لابن القيم (٢/ ١١٣-١١٦)، البيضاوي (٣/ ٤٩٦-٤٩٧)، الجلالين (٢/ ٢٤٠)، الجمل (٢/ ٢٤٠).

(٥) نظم الدرر للبقاعي (٢/ ٤٨٢-٤٨٣).

٧- قراءة ما سبقها من الآيات

قد تتشابه بعض الآيات ثم تختلف في ترتيب بعض كلماتها أو زيادة كلمة أو حرف مما يجعل القارئ يتوقف عندها متسائلاً عن الحكمة، ولكنه لو قرأ ما سبقها من الآيات لعلم أن ترتيب كلماتها أو زيادة حرف فيها يناسب ما سبقها. من ذلك:

أ- تبادل النفع والضر

ورد في سورة الأعراف ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾[1] فقدم ذكر النفع على الضر، بينما في سور كثيرة يقدم الضر على النفع، فما الحكمة؟ يمكن معرفة الحكمة بقراءة الآيات السابقة لها، فلو قرأت الآيات التي قبلها لرأيتها رتبت ذكر النفع قبل الضر.

إذ قال الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾[2] فقدم ذكر الهداية على الضلال، فالهداية نفع بينما الضلال ضر، ثم بعد آية الهداية قال تعالى: ﴿مَن

---

(١) الأعراف (١٨٨).

(٢) الأعراف (١٧٨).

يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾[١] فأتت آية كاملة عن الضلال بعد آية الهداية، ثم جاءت الآية المذكورة ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ فكانت متناسبة مع الآيات التي قبلها وعلى نسق واحد في تقديم النفع على الضر والخير على الشر والهداية على الضلال. ملخص الإجابة أنه «تقدم ذكر النفع على الضر لأنه تقدمه لفظ تضمن نفعاً. . . فقدم هنا النفع لموافقة قوله قبله ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِي﴾، وقوله بعده ﴿لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ إذ الهداية والخير من جنس النفع[٢].

بينما في سورة يونس قال الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾[٣] «قدم الضر على النفع موافقة لما سبقها»[٤] من الآيات القريبة حيث قدم ذكر الكفار ومصيرهم الأليم على ذكر المؤمنين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي

(١) الأعراف (١٨٦).
(٢) فتح الرحمن (٢١٣- ٢١٤).
(٣) يونس (١٨).
(٤) فتح الرحمن (٢١٣- ٢١٤).

جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾[١].

وكذا قدم فيها ذكر إصابة الإنسان بالضر على كشفه عنه ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ﴾[٢]. فناسب بعدها تقديم الضر على النفع.

وكذا في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا﴾[٣] فقدم ذكر الضر على النفع «لما تقدم قبله من قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ فطلبوا هذا العذاب استهانة وتكذيباً ولم يعلموا ما في مطلبهم من المحنة والمضرة العاجلة[٤]. فكانت الإجابة عن سؤال الكفار: «متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ قل: لا أملك لنفسي ما وعدكم الله من العذاب، ولا أن أدفع عنكم سوء العقاب، كما لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله أن يملكنيه منهما»[٥]. «فهي واردة فيما كان

(١) يونس (٧-٩).
(٢) يونس (١٢).
(٣) يونس (٤٨-٤٩).
(٤) ملاك التأويل (١/ ٤٥١).
(٥) درة التنزيل (١٨١).

يستعجله الكفار من عذاب الله تعالى، وقبلها ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾(١) أي إن أريناك بعض ما نتوعد به هؤلاء الكفار من العذاب في عاجل الدنيا حتى تراه نازلاً بهم في حياتك أو أخرنا ذلك عنهم إلى بعد وفاتك ووفاتهم فإن ذلك لا يفوتهم لأن مرجعهم إليّ»(٢)، «فقدم الضر لأجل ما تقدم من طلبهم إياه»(٣).

وفي سورة المائدة لما ذكر الله تعالى مسارعة النصارى إلى الكفر بعبادتهم عيسى عليه السلام ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾(٤) وتثليثهم ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾(٥) بعد أخذ الميثاق عليهم قدم ذكر الضر على النفع إذ الكفر أعظم الضر في حق صاحبه ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾(٦). فكانت متناسقة مع ما سبقها من الآيات.

(١) يونس (٤٦).

(٢) درة التنزيل (١٨١).

(٣) ملاك التأويل (١/ ٤٥١).

(٤) المائدة (٧٢).

(٥) المائدة (٧٣).

(٦) المائدة (٧٦).

وفي آخر **سورة الفرقان** لما ذكر الله تعالى آلاءه العظيمة ونعمه السابغة التي بدأت بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾[1] إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾[2] «فكان فيها تعداد لنعمه سبحانه وكان الحامل للإنسان على الإذعان رجاء الإحسان في السر والإعلان»[3] قدم ذكر النفع على الضر في الآيات التي تليها ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ﴾[4] فناسبت ما سبقها «فإنه تَبِعَ لما قدم فيه الأفضل على الأنقص لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾[5] الآية وقوله بعده: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ﴾[6]، ثم جاء بعدها ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ﴾ فقدم النفع على الضر اتباعاً لما تقدم»[7].

بينما في أول السورة قدم ذكر الضر على النفع لما ذكر بعده من

(١) الفرقان (٤٥).

(٢) الفرقان (٥٤).

(٣) نظم الدرر (٥/ ٣٢٩).

(٤) الفرقان (٥٥).

(٥) الفرقان (٥٣).

(٦) الفرقان (٥٤).

(٧) درة التنزيل (٣٢٨).

تقديم الموت الذي يعتبره الناس أعظم المصائب في الحياة، تلك الحياة التي في أعين الناس غاية الغايات فقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣﴾[1] «قال مبتدئاً بالموت الذي هو من باب الضر على نسق ما قبله»[2]، والله أعلم.

---

(١) الفرقان (٣).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٢٩٥).

ب- مواخر فيه، فيه مواخر

ورد في سورة النحل قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾[(١)] بينما في سورة فاطر ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾[(٢)]، فما الحكمة؟

أولاً: «المخر في اللغة الصوت الذي يكون من هبوب الريح على شيء يُشَق أو يكون من السفينة ونحوها[(٣)] في الماء، «فهو الصوت الذي يحدث من جري السفينة بالريح»[(٤)].

ثانياً: إجابة على السؤال المذكور يمكن معرفة الحكمة بمعرفة ما سبقها من الآيات. ففي سورة النحل قال سبحانه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾[(٥)] فذكر الجار والمجرور ﴿مِنْهُ﴾ بعد ﴿لِتَأْكُلُواْ﴾ فأخر الجار والمجرور فقال ﴿لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ﴾، ثم قال سبحانه ﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً﴾[(٦)] فذكر مرة أخرى

(١) النحل (١٤).
(٢) فاطر (١٢).
(٣) المحرر الوجيز (١٠٨٧).
(٤) المحرر الوجيز (١٥٤٨).
(٥) النحل (١٤).
(٦) النحل (١٤).

الجار والمجرور ﴿مِنْهُ﴾ بعد ﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ﴾ فأخر الجار والمجرور ﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ﴾، فناسب بعدها أن يؤخر الجار والمجرور ﴿فِيهِ﴾ بعد مواخر فقال سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾[1] «للتناسب والتشاكل مع ما قبلها»[2].

أما في سورة فاطر بالعكس إذ قدم الجار والمجرور ﴿مِن﴾ على الأكل واستخراج الحلية فقال سبحانه: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾[3] فناسب أن يقدم الجار والمجرور ﴿فِيهِ﴾ على ﴿مَوَاخِرَ﴾ فقال سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾[4].

ثالثاً: ثم سبب آخر وهو أن سورة النحل مقصدها شكر الله تعالى على نعمه المتنوعة «فآية النحل مبنية على قصد الاعتبار وتعداد النعم»[5] فوردت الآيات في مقام الشكر عليها والتي منها الأكل واستخراج الحلية ومخر السفن. فقدم ذكر هذه المنائح الإلهية على المصدر والجهة التي تؤخذ منها هذه المنائح والهبات

(١) النحل (١٤).
(٢) ملاك التأويل (٢/ ٥٩٦- ٥٩٧).
(٣) فاطر (١٢).
(٤) فاطر (١٢).
(٥) ملاك التأويل (٢/ ٥٩٦- ٥٩٧).

فقال: ﴿لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ﴾، ﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ﴾، ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ «فآية النحل سيقت لتعداد النعم كما يؤذن بذلك سوابقها ولواحقها»[1]. «فلما كان النظر إلى تعداد النعم هنا أتم منه في سورة فاطر قدم المخر»[2].

رابعاً: بينما سورة فاطر مقصدها: بيان مراتب الشرف والمجد، والقواعد الإلهية التي جعلها الله تعالى طريقاً إلى الترقي فيها، ومراتب الخزي والعار، والقواعد التي جعلها الله تعالى طريقاً إلى السفول فيها لا محيد عنها ولا يستطيع العبد القفز عليها ولا تجاوزها فقد أحكم الله أمرها مما يدل على أحدية الخالق والمعبود والمرسل للرسالات على تنوعها «فهي مبنية على إبداء القدرة وجليل الحكمة. ألا ترى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ﴾[3] ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ﴾[4] فهذا مقصود الاعتبار والتعريف بانفراده سبحانه بخلق ذلك كله والقدرة عليه وإحكام

(١) روح المعاني (٢٢/ ١٨١).
(٢) نظم الدرر (٤/ ٢٥٤).
(٣) فاطر (١١).
(٤) فاطر (١٢).

الصنعة»[١].

وفيها بيان تنويع الخلق على تضاد صوره ولكنه على تنوعه يحقق هدفاً واحداً وهو توحيد المعبود. فلما ذكر الله تعالى مراتب المياه والبحار المالحة والعذبة ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾[٢] بيّن أنها مصادر مختلفة ولكن لها منافع متشابهة إذ «فيه التنبيه على الحكمة الربانية في المخلوقات وهي ناموس تمايزها بخصائص مختلفة واتحاد أنواعها في خصائص متماثلة استدلالاً على دقيق صنع الله تعالى... فخلق البحرين العذب والأجاج على صورة واحدة وخالف بين أغراضها واتحدا في إخراج الحيتان والحلية[٣] فقال سبحانه مقدماً ذكر المصادر: ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ أي من كل المصادر المتنوعة تخرج نعم متشابهة حيث قال: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً﴾ ثم بين سبحانه بالرغم من اختلافها إلا أن السفن في جميع أنواع البحار تمخر فلا يعيقها نوع البحر ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ فعلى اختلاف المصادر إلا أنها تتشابه في منافعها «فتقديم الظرف في

(١) ملاك التأويل (٢/ ٥٩٨).
(٢) فاطر (١٢).
(٣) الطاهر عاشور (٢٢/ ٢٧٩-٢٨٠).

قوله: ﴿فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ لأنها مسوقة مساق الاستدلال على دقيق صنع الله تعالى في المخلوقات[(١)].

«فالبحران يختلفان في الماء فإن أحدهما عذب فرات والآخر ملح أجاج... ثم إنهما بعد اختلافهما يوجد منهما أمور متشابهة. فإن اللحم الطري يوجد فيهما، والحلية تؤخذ منهما، ومَن يُوجِد في المتشابهين اختلافاً وفي المختلفَيْن اشتباهاً لا يكون إلا قادراً مختاراً»[(٢)].

«فالمراد من الآية الاستدلال بالبحرين وما فيهما على وجود الله ووحدانيته وكمال قدرته»[(٣)]. فقدم ذكر المصدرين ﴿مِّن كُلٍّ﴾ ﴿فِيهِ﴾ على منافعهما المتشابهة ﴿تَأْكُلُونَ﴾، ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾، ﴿مَوَاخِرَ﴾.

خامساً: «وكذا ضرب البحرين العذب والمالح مثلين للمؤمن والكافر»[(٤)]. حيث يخرج من كليهما عبد مؤمن يتميز بجماله ونوره وطراوة قلبه وهو زينة الدنيا ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ

---

(١) عاشور (٢٢/ ٢٨٠).
(٢) التفسير الكبير للرازي (٢٦/ ١٠).
(٣) تفسير الرازي (٢٦/ ١١).
(٤) الكشاف (٣/ ٢٧١)، فتح القدير (٤/ ٣٤٣).

﴿حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ﴾. فلا يلزم من الكافر أن لا يخرج منه إلا كافر، فهما أي الكافر والمؤمن مصدران لولادة العبد المؤمن. فلما كان المقصود ذكر اختلاف المصادر ناسب تقديم ذكر المصادر فقال: ﴿مِّن كُلّٖ﴾ ﴿فِيهِ﴾ أي من البحر وفي البحر، وناسب تأخير ذكر فوائدهما ومنافعهما ﴿تَأۡكُلُونَ﴾، ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُونَ﴾، ﴿مَوَاخِرَ﴾ بعد المصادر.

سادساً: وكذا ذكر الله تعالى «فضل البحر الأجاج على الكافر، فإن البحر الأجاج قد شارك البحر العذب في منافع من السمك واللؤلؤ وجري الفلك بما ينفع الناس، والكافر خلو من النفع[1] في نفسه، والكافر والبحر الأجاج كلاهما مصادر، والله أعلم.

(١) إعراب القرآن للدرويش (٨/ ١٤٠).

جـ- قوامين بالقسط، قوامين لله

ورد في سورة النساء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾[1]، بينما في سورة المائدة ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾[2]، ما الحكمة؟ يمكن معرفتها بإذن الله تعالى بقراءة ما سبقها من الآيات.

أولاً: أما آية النساء «فإن الآيات المتصلة بها مبنية على الأمر بالعدل والقسط، قال تعالى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ﴾[4]، ثم قال سبحانه: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ وتوالت الآي بعد على هذا المعنى فقدم قوله: ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾ ليناسب ما ذكر[5].

وكذا قال سبحانه قبلها: ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ﴾[6] فالسياق وارد في القسط والعدل، ثم قال بعدها «كالنتيجة لما مضى من الأمر

---

(١) النساء (١٣٥).

(٢) المائدة (٨).

(٣) النساء (١٢٣).

(٤) النساء (١٢٧).

(٥) ملاك التأويل (١/ ٢٢١).

(٦) النساء (١٢٩).

بالقسط . . . على وجه أكده وحث عليه[(١)] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ فناسب تقديم القسط «لأن العدل والحق مقدمان على الحقوق الشخصية وحقوق القرابة وغيرها، وكانت محاباة الأقربين معهودة في الجاهلية لأن أمرهم قائم بالعصبية. فالواحد منهم كان ينصر قومه وأهل عصبيته لأنه يعتز بهم، كما يظلم النساء واليتامى لضعفهن[(٢)]. فهي «متصلة بما قبلها من الآيات القريبة خاصة بما فيه من الأمر العام بالقسط في اليتامى والنساء»[(٣)].

ثانياً: بينما سورة المائدة سورة العهود والمواثيق مع الله تعالى. لذا في بداية السورة ذكر تعظيم شعائر الله تعالى ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾[(٤)]، وفي ذكر المحرمات من الأطعمة التي حرمها الله تعالى قال سبحانه: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾[(٥)] منكراً عليهم ما قدموه على الله تعالى ثم قال سبحانه: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ﴾[(٦)]، وهكذا يقدم اسم الله

---

(١) نظم الدرر (٢/ ٣٣٣).
(٢) مختصر تفسير المنار (٢/ ١٩٨).
(٣) المرجع السابق.
(٤) المائدة (٢).
(٥) المائدة (٣).
(٦) المائدة (٧).

في الآيات السابقة لها توثيقاً للعهد. فلا بد من تقديم اسم صاحب الميثاق ليكون أدعى للتعظيم والحفاظ عليه.

«فلما كان مبنى السورة على الوفاء بالعهد الوثيق، ويعظم العزم عليه بالتذكر بجلالةِ مُوثِّقه وعدم انتهاك حرمته، لأن المعاهد إنما يكون باسمه ولحفظ حده ورسمه قدم قوله: ﴿لِلَّهِ﴾»[1].

ثالثاً: «فكونوا من أصحاب الهمم العالية وأهل الإتقان والإخلاص لله في أعمال الدنيا وأن تكون بنية صالحة»[2]. لذا قال بعدها: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ فناسب تقديم اسم الله تعالى.

وكذا «ثبت قبلها الأمر بالطهارة ثم تذكيره سبحانه بتذكر نعمه والوقوف مع **ما عهد به** إلى عباده والأمر بتقواه فناسب قوله: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾»[3].

«فاختصت آية النساء بالقسط والشهادة لله وآية المائدة بالقيام لله والشهادة بالقسط لسر عجيب من أسرار القرآن[4]، والله أعلم.

(١) نظم الدرر (٢/ ٤٠٧).
(٢) مختصر تفسير المنار(٢/٢٩٢).
(٣) ملاك التأويل (١/ ٢٢١).
(٤) بدائع التفسير (٢/ ٨٢).

د- أساور من فضة، من ذهب

ورد في سورة الإنسان في حلية أهل الجنة ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾[1] بينما في سائر سور القرآن ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾[2]، فهل من حكمة؟

أولاً: يحلى أهل الجنة بالذهب والفضة، ولكن لما كان الذهب أنفس معادن الحلي وأغلاها ذكر في سائر الآيات المذكورة. ولكن في سورة الإنسان لما ذكر الله تعالى أن أهل الجنة يسقون من آنية من فضة ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكۡوَابٍ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرًا ﴿١٦﴾﴾[3] ناسب بعدها ذكر الفضة لبيان كمال التناسق بين الحلي الملبوس في اليد مع الآنية التي تمسك باليد للشرب، ففيها كمال الأناقة والذوق يتصورها الذهن وهو يقرأ الآيات.

ثانياً: إن مقصد السورة هو الإخلاص لله تعالى، فلما صفى القلب لله تعالى أصبح كالزجاجة ولكنها من فضة ﴿قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ﴾ «فجمعت بين صفاء الزجاجة وشفيفها، وبياض الفضة ولينها»[4].

---

(١) الإنسان (٢١).

(٢) الكهف (٣١)، الحج (٢٣)، فاطر (٣٣).

(٣) الإنسان (١٥ - ١٦).

(٤) البيضاوي (٣٥٧/٩).

قال الحسن البصري: «بياض الفضة في صفاء القوارير»[١]. «وهذا من أعجب الأشياء أن تكون الفضة الكثيفة من صفاء جوهرها وطيب معدنها على صفاء القوارير»[٢]. فالمؤمن «من زجاج في شفوفه، ومن فضة في جوهره»[٣]، ظاهره يصدق باطنه، وباطنه يصدق ظاهره كالزجاج ﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾ «يرى باطنها من ظاهرها»[٤]، «فيرى ما فيها من الشراب من خارجها»[٥]، فناسب ذكر حلي الفضة. لذا ورد بعدها ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾[٦] وصف بالطهارة للصفاء والزكاء، والله أعلم.

* * *

(١) رواه الطبري (٢٩/ ١٣٣).

(٢) تفسير السعدي (١٢٥٧).

(٣) المحرر الوجيز (١٩٣٠).

(٤) غرائب القرآن لنظام الدين النيسابوري (٢٩/ ١١٨).

(٥) مدارك التنزيل لأبي البركات النسفي (٣/ ٦٢٩)، ونحوه للشوكاني في فتح القدير (٥/ ٣٥٠).

(٦) الإنسان (٢١).

٨- علقها بما بعدها من الآيات

بقراءة الآيات التي تعقب الآيات المتشابهة تتضح بعض الحكم من الفروق في الألفاظ، من ذلك:

أ- وزينتها

ورد في سورة الشورى ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾[١]، بينما في سورة القصص ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ﴾[٢]، ما الحكمة من زيادة ﴿وَزِينَتُهَاۚ﴾ في سورة القصص؟

أولاً: «سورة القصص تضمنت ذكر قارون وما أوتيه من المال الذي هو زينة الحياة الدنيا قال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾[٣]، ثم أخبر تعالى عن زهوه واختياله بماله وظنه استحقاقه إياه ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي

(١) الشورى (٣٦).

(٢) القصص (٦٠).

(٣) القصص (٧٦).

زِينَتِهِۦٓ﴾[1]. . . فقدم سبحانه قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ﴾ للمعتبر من عباده المؤمنين وتنبيهاً للغافلين تمهيداً لما يأتي بعدها من الآيات في قصة قارون الذي غرته زينته. . .، ولم يقع في آية الشورى ذكر ﴿وَزِينَتَهَا﴾ إذ لم يرد فيها ما ورد هنا مما يستدعي هذه المناسبة[2].

ثانياً: مقصد سورة القصص أن من علا وأفسد وظلم في الأرض متجبراً بملكه فالهلاك عاقبته كفرعون، وكذا من علا وأفسد في الأرض مغتراً بزينته والزينة الدنيوية فالهلاك عاقبته سواء؛ كقارون. بينما حسن العاقبة لمن اتقى الله وتواضع في الأرض وأصلح ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾[3]، فناسب ذكر الزينة في الآية المذكورة في سورة القصص، والله أعلم.

(١) القصص (٧٩).
(٢) ملاك التأويل (٢/ ٥٧٩).
(٣) القصص (٨٣).

ب- صلاتهم، صلواتهم يحافظون

قال الله تعالى في سورة المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾[١]، ذكرت الصلاة مجموعة ﴿صَلَوَٰتِهِمْ﴾، بينما في سورة المعارج: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤﴾[٢] ذكرت الصلاة بصيغة المفرد ﴿صَلَاتِهِمْ﴾، فما الحكمة؟

أولاً: لا بد وأن نعرف أن المؤمنين درجتان، الأولى وهي الدرجة العليا وهي درجة السابقين المقربين عباد الله تعالى المحسنين؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾[٣]، وقال سبحانه: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾[٤]، لذا عندما سأل جبريل عليه السلام النبي ﷺ عن الإحسان قال ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[٥] فهي درجة المحسنين. لذا خاطبهم الله تعالى بقوله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ

(١) المؤمنون (٩).

(٢) المعارج (٣٤).

(٣) الواقعة (١٠).

(٤) الإنسان (٦).

(٥) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٨-٩).

وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾[1]، وقال تعالى فيهم: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾[2].

أما الدرجة الثانية فهي درجة الأبرار أصحاب اليمين المؤمنين، قال الله تعالى فيهم: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾[3]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾[4]، وهم دون الدرجة الأولى ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾[5].

ثانياً: أما أصحاب الدرجة الثانية وهم الأبرار أصحاب اليمين فهم الذين يؤدون الواجبات ويجتنبون المحرمات، وليس لهم تطلع إلى فعل المستحبات وترك المكروهات إلا لسد النقص. فهم يحافظون على صلاة الفريضة دون حرصٍ على النوافل، ويحافظون على صوم رمضان دون حرصٍ على صيام النافلة، والزكاة دون الصدقة المستحبة، وحج الفرض دون حج النافلة، وهكذا.

أما المحسنون السابقون فهم يحافظون على صلاة الفريضة

(١) آل عمران (١٣٣- ١٣٤).
(٢) الرحمن (٤٦).
(٣) الواقعة (٢٧-٢٨).
(٤) الإنسان (٥).
(٥) الرحمن (٦٢).

وصلوات النوافل، وصيام الفرض رمضان وصيام النافلة، وحج الفرض وحج النافلة والعمرة، والزكاة بالإضافة إلى الصدقة المستحبة وهكذا.

ثالثاً: لما ذكر الله تعالى صنف الدرجة الثانية في سورة المعارج ذكر صفات الأبرار أهل اليمين المؤمنين، فهم يؤدون الواجبات ويقتصرون على الفرائض، فيحافظون على صنف واحد من الصلوات وهي صلاة الفريضة ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾ «وَحَّد الصلاة إشارة إلى أنه يكفي في ذلك الفرائض»[١]. «ومحافظتهم عليها أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ومواقيتها، ويقيموا أركانها ويكملوها بسننها وآدابها، ويحفظوها من الإحباط باقتراف المآثم»[٢].

فهي تنبئ عن «مراعاتهم لأوقاتها وقيامهم بحقوقها المفروضة قبلها، والمفروضة عند افتتاحها، والمفروضة عند جملة حدودها إلى حين اختتامها»[٣]. فخلاصته «أنهم الذين على مواقيت صلاتهم التي فرضها الله عليهم وحدودها التي أوجبها عليهم يحافظون ولا

(١) نظم الدرر (٨/ ١٥٥).
(٢) الكشاف (٤/ ١٤٠)، تفسير ابن كثير، المعارج (٣٤).
(٣) درة التنزيل (٤٩٨)، فتح الرحمن (٥٨١-٥٨٢)، الروض الريان (٢/ ٥٢٢).

يضيعون لها ميقاتاً ولا حداً»[١]. فبين الله تعالى جزاءهم أن لهم الجنة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ٣٥﴾[٢].

رابعاً: بينما في سورة المؤمنين ذكر الله تعالى الصنف الأول أصحاب الدرجة الأولى من أهل الإيمان، وهم السابقون المحسنون المقربون الذي يؤدون صلاة الفريضة الواجبة والسنن المؤكدة كالوتر وسنة الفجر وركعتي الطواف، والسنن الرواتب وهي السنن التابعة للفريضة أربع قبل الظهر وركعتان بعدها وركعتان بعد المغرب وركعتان بعد العشاء وكذا قيام الليل، والسنن المستحبة منها ركعتا الوضوء والأذان والضحى وغيرها من المستحبات. فهي ليست نوعاً واحداً من الصلاة وإنما أنواع من الصلاة: الفريضة والمؤكدة والرواتب والمستحبات فقال تعالى فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩﴾ «فجمعت لتفيد المحافظة على أعدادها وهي الصلوات الخمس والوتر والسنن المرتبة مع كل صلاة وصلاة الجمعة والعيدين والجنازة والاستسقاء والكسوف والخسوف وصلاة الضحى والتهجد... وغيرها من النوافل»[٣]، «فجمعت

(١) تفسير ابن جرير (٢٩/ ٥٣).

(٢) المعارج (٣٥).

(٣) الكشاف (٣/ ٤٤).

إشارة إلى أعدادها وأنواعها»[١]، «لا يتركون شيئاً من مفروضاتها ولا مسنوناتها ويجتهدون في كمالاتها[٢]. «فهي لأهل الرسوخ في المحاسن[٣] فكان جزاؤهم في الجنة أعلى من الأبرار «لأنهم حلوا من صفات الخير أعلاها وذروتها»[٤] فقال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١﴾[٥] جعلنا الله ووالدينا وأهلينا منهم بفضله وكرمه.

والفردوس أعلى الجنة إذ قال النبي ﷺ: «إذا سألتم الله فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة»[٦]، «فلما ذكر مجموع هذه الأوصاف العظيمة فخم جزاءهم[٧].

الخلاصة: لما ذكر الله تعالى الثواب بالفردوس وصف أصحابها أنهم يحافظون على عدة أنواع من الصلوات ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ

(١) نظم الدرر (٥/ ١٨٤- ١٨٥).
(٢) نظم الدرر (٥/ ١٨٤).
(٣) نظم الدرر (٨/ ١٥٥).
(٤) السعدي (٧٤٦).
(٥) المؤمنون (١١-١٢).
(٦) رواه البخاري (٧٤٢٣، ٢٧٩٠).
(٧) نظم الدرر (٥/ ١٨٥).

عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾. ولما ذكر سبحانه الثواب بالجنة على العموم وصف أصحابها بأنهم يحافظون على صلاة الفريضة ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾، والله أعلم.

جـ- وبالوالدين إحساناً، وحسناً

ورد في سورة الأحقاف ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا﴾[1]، وفي العنكبوت ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾[2]، بينما في آية لقمان ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾[3]، ليس فيها حسناً ولا إحساناً، هل من حكمة؟

أولاً: لابد من معرفة الفرق بين إحساناً وحسناً. أما ﴿حَسَنًا﴾ فهي المعاملة الحسنة، وأما ﴿إِحْسَـٰنًا﴾ فهي كمال الإحسان في المعاملة وهي أعلى المراتب في حسن التعامل من اللين واللطف وخفض الجناح للوالدين إذ الجنة تحت أقدامهما.

ثانياً: يمكن معرفة الحكمة من الفرق بقراءة ما بعد اللفظ المذكور، فالآية الأولى في سورة الأحقاف ﴿إِحْسَـٰنًا﴾ وردت في الوالدين المؤمنين إذ «وردت فيمن أوصي بوالديه وهما مؤمنان لا يمنعانه عن الإيمان وهو من طاب نفساً وأصلاً»[4]، «فآمن هو وأبواه

(١) الأحقاف (١٥).

(٢) العنكبوت (٨).

(٣) لقمان (١٤).

(٤) درة التنزيل (٣٥٠).

وسأل الله أن يصلح أولاده[1] ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (١٥) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ (١٦)﴾[2] فالثواب له ولوالديه ولذريته، أما النعمة عليه وعلى والديه فهي نعمة الإيمان والإسلام، لذا ذكر بعدها الابن الفاجر الذي كان والداه يدعوانه إلى الإيمان فيكفر ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾[3].

ثالثاً: أما آية العنكبوت ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ﴾ فقد وردت في الوالدين الكافرين حيث حاولا مع ولدهما بطرق شتى الإشراك بالله تعالى ولكنه أصر على الإيمان فتركاه ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى﴾[4] أي لكي تشرك بي، فعليه أن يتعامل معهما معاملة حسنة ﴿حَسَنًا ۖ﴾ ولم يقل: ﴿إِحْسَٰنًا ۖ﴾، لأن الإحسان في حق الوالدين المؤمنين والمعاملة

(١) درة التنزيل (٣٥٠)، ملاك التأويل (٢/ ٧٦٥).
(٢) الأحقاف (١٥-١٦).
(٣) الأحقاف (١٧).
(٤) العنكبوت (٨).

الحسنة مع الوالدين الكافرين.

رابعاً: أما آية لقمان ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾[١] ولم يقل سبحانه: «حسناً» ولا «إحساناً» لأنهما عذباه وآذياه وتعاليا عليه بالضرب والشتم والسجن والتعذيب على الشرك «ومنعاه عن الإيمان[٢]. لذا قال سبحانه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى﴾[٣] أي جاهدا ابنهما مع تعالٍ عليه بالاعتداء فقال: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ﴾ فلا يجب عليه أن يتعامل معهما بالإحسان ولا حسناً ولكن المصاحبة بالمعروف، أي بما «يقتضيه العرف والشرع[٤] في المعاملة في مثل هذه الظروف والأحوال فقال سبحانه: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[٥]. لذا قال بعض المفسرين: إنها «وردت خاصة في سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه»[٦].

فالأحوال ثلاثة: إذا تعالى الوالدان عليه بالضرب والإيذاء والشتم ليكفر ﴿جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ﴾ فالذي يجب عليه المعاملة

(١) لقمان (١٤).
(٢) درة التنزيل (٣٥٠)، ملاك التأويل (٢/ ٧٦٥).
(٣) لقمان (١٥).
(٤) غرائب القرآن لنظام الدين النسيابوري (٢١/ ٥٥).
(٥) لقمان (١٥).
(٦) النكت والعيون للماوردي (٣/ ٢٨٠).

بالمعروف ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ﴾، أما إذا لم يتعاليا عليه بالإيذاء والشتم والضرب وإنما المحاولة بالطرق الأخرى لكي يشرك ﴿جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي﴾ فيتعامل معهما حسناً، أما إذا كانا مؤمنين فيتعامل معهم بالإحسان ﴿إِحْسَٰنًاۖ﴾، والله أعلم.

فاقرأ ما بعد الآيات المتشابهة يتبين لك الحِكَم من الفروق.

٩- معرفة الحوادث وأسباب النزول

إن معرفة الحادثة التي نزلت فيها الآية وكذا سبب نزولها من الأمور المطلوبة لفهم الآية الفهم الصحيح وتنزيل المعاني منازلها. وذلك يمنح المتدبر معنى لطيفاً يعز اقتباسه لو لم يسلك طريق الحادثة وسبب النزول. من ذلك:

أ- والضحى

في سورة الضحى قال الله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾[١]. لِمَ استهلت هذه السورة بـ ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾؟ لِمَ لم تبدأ بـ [والعصر]، [والفجر]، [والظهر]، [والمغرب]؟

أولاً: يمكن معرفة الحكمة بمعرفة سبب نزول السورة. إذ تأخر نزول الوحي على النبي ﷺ فاشتكى ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً فقالت امرأة من الكفار: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قَرِبَك منذ ليلتين أو ثلاث. فأنزل الله تعالى ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾

(١) الضحى (٢-٣).

السورة[1].

ثانياً: (الضُّحَى) هو الزمن الذي يبدأ بعد شروق الشمس واكتمالها إلى ما قبل انتصافها وسط السماء، «فهو في الأصل اسمٌ لوقت ارتفاع الشمس[2]. ففي فترة الضحى تستمر «الشمس في الارتفاع[3] والصعود وبسط شعاعها على الأرض «والنهار يقوى فيه»[4] «ويرتفع ارتفاعاً عالياً»[5]. ولا يسمى الزمن **ضحى** إلا إذا كانت الشمس في ارتفاع وتألق وفي طريقها إلى وسط السماء.

ثالثاً: هذا الوقت (الضُّحَى) مناسب لسبب نزول السورة، إذ ظن الكفار أن الإسلام في أفول وفي نهايته، فظنوا انقطاع الوحي وظنوا هجر الله تعالى لنبيه ﷺ. فبين الله تعالى «أنه لم يترك النبي ﷺ ولم يفارقه ألطافه وتكليمه[6]. وأن محبة الله لك في ازدياد وارتفاع كحال ارتفاع الشمس «وذلك يدل على أنك تبلغ من الشرف ما لا يبلغه

---

(١) رواه البخاري (٤٩٥٠)، ومسلم (١٧٩٧/ ١١٥).

(٢) فتح القدير (٥/ ٤٥٧).

(٣) تفسير البيضاوي (٩/ ٥١٠).

(٤) تفسير البيضاوي (٩/ ٥١٠).

(٥) الشهاب الخفاجي (٩/ ٥١٠).

(٦) الشهاب الخفاجي (٩/ ٥١٠)، روح المعاني (١٥٢/٣٠).

غيرك[١]، وأن الإسلام في انتشار واتساع وبسط شعاعه على الأرض كانتشار الشمس واتساعها وبسطها شعاعها على الأرض.

«وقدم الضحى على الليل لما له من فضيلة النور»[٢]. «فهي لمسة من حنان، ونسمة من رحمة، وطائف من ود، ويدٌ حانية تمسح على الآلام والمواجع، وتنسِم بالروح والرضى والأمل، وتسكب البرد والطمأنينة واليقين... إنها تسرية وتسلية وترويح وتطمين. كلها أنسام من الرحمة وأنداء من الود، وألطاف من القربى، وهدهدة للروح المتعب والخاطر المقلق والقلب الموجوع»[٣].

رابعاً: أما إرجاء نزول الوحي فترة ذلك لأن نزول الوحي كان شديداً على النبي ﷺ «كصلصلة الجرس وهو أشده عليه» قال تعالى عن القرآن: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝﴾[٤]، فمن أجل أن يحصل للنفس نوع من التخفيف والارتياح وزمن لتقبل وتحمل الوحي تأخر نزول الوحي. كحال الإنسان إذا كدّ وتعب في نهاره وضحاه فإنه يحتاج إلى الراحة والنوم في الليل ليستعد للعمل الجاد في الغد

(١) نظم الدرر (٨/ ٤٥٢).
(٢) الجمل (٨/ ٣٤٤).
(٣) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٢٥).
(٤) المزمل (٥).

فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ «أي سكن أهله[1]»، «فالليل للراحة[2]»، ففي تأخر الوحي فائدة لك لترتاح وتلتقط أنفاسك كحال الليل إذا أقبل بعد عمل ثقيل جاد. «فالليل هو الليل إذا سجى، لا الليل على إطلاقه بوحشته وظلامه، الليل الساجي الذي يرق ويسكن ويصفو، وتغشاه سحابة رقيقة من الشجى الشفيف والتأمل الوديع[3]».

خامساً: لو قال سبحانه [والظهر] لما ناسب المقام إذ الظهر يبدأ بانحدار الشمس والنزول عن القمة وبدء الأفول وهذا لا يناسب مقصد السورة، فمحبة الله تعالى لم تنقص ولن تأفل، والإسلام لا يزال في علو وانتشار. وكذا [والعصر] هو استمرار في النزول نهاية اليوم، والمغرب أفول للشمس، ولذا لم تستهل السورة بـ [والليل]. أما [الفجر] فلم تشرق الشمس بعد. فلا يناسب الحال الذي من أجله نزلت السورة إلا زمن (الضُّحَى)، والله أعلم.

---

(١) تفسير البيضاوي (٩/ ٥١٠).
(٢) غرائب القرآن للنيسابوري (٣٠/ ١٠٦).
(٣) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٢٦).

ب- أضعافاً مضاعفة

قال: استوقفتني آية شعرت في الوهلة الأولى أنها لا تناسب الآيات التي قبلها وهي قول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾[1] إذ وردت بعد أحداث غزوة أحد، وورد فيها الزيادة الربوية ﴿أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾، بينما لم ترد هذه الزيادة في آيات الربا الأخرى في سورة البقرة، فما المناسبة؟ يمكن التوصل إلى الحكمة والمناسبة بمعرفة الحدث الذي من أجله نزلت هذه الآية أو سبب النزول.

أولاً: في غزوة أحد قتل من المسلمين سبعون، ومثَّل بهم الكفار، فقطعوهم أشلاء وبقروا بطونهم، وأكلت أكباد بعضهم كما حصل لحمزة رضي الله عنه. فقال بعض المسلمين: لئن ظفرنا بالكفار لنمثلن بسبعين مقابل كل واحد منا. وروى الترمذي عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلاً ومن المهاجرين ستة منهم حمزة رضي الله عنه فمثلوا بهم، فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لنُرْبِيَنَّ عليهم (من الربا: أي لنمثلن بأعداد مضاعفة منهم)، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله تعالى ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ

(١) آل عمران (١٣٠).

فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾[1]، [2].
ففي هذه القصة «أمر يصلح أن يكون سبباً لنزول هذه الآية[3]. فوردت الآية ﴿لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾ بعد أحد لبيان أنه لا يجوز الربا في المال فكيف بالأنفس؟ فكيف إذا كان أضعافاً مضاعفة بقولكم «لنربين عليهم»؟ «لنمثلن بسبعين منهم»؟ فكانت زيادة ﴿أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾ مناسبة تماماً.

ثانياً: ومناسبة أخرى وهي أن «أعظم المقتضيات للخذلان تضييعهم للثغر الذي أمرهم النبي ﷺ بحفظه قبل إتمام هزيمة العدو بسبب إقبالهم على الغنائم للزيادة في الأعراض الدنيوية التي هي معنى الربا في اللغة إذ هو مطلق الزيادة[4]، ثم هذا قد «يجر إلى الربا المضاعف[5].

ثالثاً: وقيل مناسبة ثالثة: أن الله سبحانه «خص الربا في هذه الآية لأنه الذي توعد الله عليه بالحرب منه لفاعله»[6] كما قال تعالى:

(١) النحل (١٢٦).
(٢) رواه الترمذي (٣١٢٩)، وصححه ابن حبان (٤٨٧) والحاكم (٢/ ٣٥٩، ٤٤٦).
(٣) نظم الدرر (٢/ ١٥٣).
(٤) نظم الدرر (٢/ ١٥٢).
(٥) نظم الدرر (٢/ ١٥٣).
(٦) فتح القدير (١/ ٣٨١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾[(١)].

لذا يسهل معرفة هذه الدقائق بمعرفة سبب النزول أو الحوادث التي من أجلها نزلت الآية، واللّٰهُ أعلم.

(١) البقرة (٢٧٨-٢٧٩).

جـ- عن مواضعه، من بعد مواضعه

قال الله تعالى في آيتين عن أهل الكتاب: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[١]، بينما وردت بلفظ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾[٢] مرة واحدة في سورة المائدة؛ ما الحكمة؟ لابد من معرفة بعض الأمور:

أولاً: «تستعمل «عن» لما جاوز الشيء إلى غيره ملاصقاً زمنه لزمنه[٣] أي للمجاوزة والابتعاد مباشرة، «فإذا قال: أطعمه عن جوع وسقاه عن عطش يراد به لما عطش سقاه ولما جاع أطعمه»[٤]. ومن ذلك قولك: «رغبت عنه» أي ابتعدت عنه مباشرة، وقولهم: «ذهبت عنه» أي تركته وابتعدت عنه. فاليهود كثيراً ما كانوا يحرفون كلام الله مباشرة وكذا أوامره بلا تأخر ولا انتظار إذ لما قيل لهم: ﴿وَٱسْمَعُوا۟ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾[٥]، ولما قيل لهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ عبدوا العجل، ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾[٦] قالوا: حنطة، ولما قيل لهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟

---

(١) النساء (٤٦)، المائدة (١٣).

(٢) المائدة (٤١).

(٣) درة التنزيل (٩١- ٩٢- بتصرف).

(٤) درة التنزيل (٩١- ٩٢- بتصرف).

(٥) البقرة (٩٣).

(٦) البقرة (٥٨).

﴿ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾[(١)] دخلوا يزحفون على أستاههم. فهذا منذ عهد نبي الله موسى عليه السلام إلى ما بعده فنزلت ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ في اليهود «الذين حرفوا ما أنزل الله من كلامه عما علموه تأويلاً له، فيكون هذا تحريفاً من جهة التأويل. وحرفوا أيضاً من جهة التنزيل ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ . . . فكانوا يعدلون بالكلم تأويله الذي له وتنزيله الذي جاء عليه إلى غيره مما هو باطل»[(٢)].

فتضمنت الأولى ﴿عَن﴾ «إخبار الله سبحانه لنبيه ﷺ بمرتكب من تقدم من كفار بني إسرائيل حين أخذ عليهم الميثاق فنقضوا العهود وقتلوا الأنبياء وحرفوا كلام الله، فجعل قلوبهم قاسية ولعنهم على لسان داود عليه السلام وعيسى ابن مريم عليه السلام فهذا كله تعريف بمرتكب سلف المعاصرين لرسول الله ﷺ وإخبار بحالهم من تحريفهم وتبديلهم[(٣)]. وهناك بعض الأحكام لم يحرفوها مباشرة.

ثانياً: معنى ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ أي يحرفونها بفتاواهم وتطبيقاً وعملاً

(١) البقرة (٥٨).
(٢) درة التنزيل (٩١- ٩٢- بتصرف).
(٣) ملاك التأويل (١/ ٢٤٢- ٢٤٤).

بالرغم من بقاء ألفاظها قائمة في التوراة وعرفت مواضعها ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾. من ذلك حكم الرجم «حيث أبطلوا العمل بكلام ثابت في التوراة إذ ألغوا حكم الرجم الثابت فيها... لأن لفظ ﴿بَعۡدِ﴾يقتضي أن مواضع الكلم مستقرة وأنه أبطل العمل بها مع بقائها قائمة في كتاب التوراة[١].

ثالثاً: وتتضمن ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ أي بعد مدة من نزول الأحكام الإلهية عليهم وبعد أن عملوا بها زماناً وتأكد العمل بها وعرفت مواضعها ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾.

وحدث هذا لليهود حيث أوجب الله عليهم رجم الزاني والزانية فطبقوا هذا الحكم فترة من الزمن، ثم رأوا الأشراف يقعون فيه فغيروه بأن جعلوا العقوبة تسويد وجه الزاني والزانية بالفحم ثم الطواف بهم أمام الناس.

فلما أتى النبي ﷺ أكد العقوبة بالرجم للزاني والزانية المحصنين، فلما سألهم النبي ﷺ عن أحكامهم حرفوا كلام الله تعالى وقالوا: «بل في كتاب الله تعالى تحميم الوجه فقط فبدلوا حكم الله تعالى. روى ابن عمر رضي الله عنه أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً

(١) الطاهر عاشور (٦/ ٢٠٠).

منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقالوا: نفضحهم ويجلدون. فقال عبدالله بن سلام: كذبتم! إن فيها الرجم. فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها. فقال له عبدالله بن سلام: ارفع يدك! فرفعها فإذا آية الرجم. فأمر بهما النبي ﷺ فرجما[١]. فحرفوا الحكم بعد فترة من تطبيقه إلى زمن النبي ﷺ فأكد الله تعالى حكم الرجم في كتابه ولكنهم أصروا على تحريفه فقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ من بعد أن عرفت مواضعه، والله أعلم.

فتبين أن «﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ تكون لما تأخر زمانه عن زمانه بأزمنة كثيرة... وكانوا حرفوا حكم الله تعالى الذي في التوراة من بعد أن عمل به في مواضعه ولم يحرفوه ساعة نزوله ووجوب العمل به[٢].

فوردت ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ «لتعريف النبي ﷺ بأحوال معاصريه منهم فقد حرفوا[٣] من الأحكام «ما استقر عليه سلفهم[٤] «فقد حرف هؤلاء

(١) رواه البخاري (٣٦٣٥).
(٢) درة التنزيل (٩١- ٩٢)، تفسير ابن جرير (٦/ ١٥٣).
(٣) ملاك التأويل (١/ ٢٤٢-٢٤٤).
(٤) المرجع السابق.

بعد الاعتراض والثبوت زائداً إلى ما ارتكبه سلفهم. . . فالبعدية لمن بعد[1]. «فوردت الآية الأولى ﴿عَنۢ﴾ في أوائل اليهود بينما الثانية ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ فيمن كانوا في زمن النبي ﷺ أي حرفوها بعد أن وضعها الله مواضعها وعرفوها وعملوا بها زماناً[2]، والله أعلم.

(١) المرجع السابق.

(٢) تفسير ابن جرير (٦/ ١٥٣)، فتح الرحمن (١٣٣).

د- صغيرة ولا كبيرة

قال الله تعالى عن الصحابة الذين خرجوا مع النبي ﷺ وجاهدوا: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾[(١)]، ما الحكمة من تقديم النفقة الصغيرة على الكبيرة؟ إذ من المعلوم أن النفقة الصغيرة إذا كتبت وأثيب العبد عليها فإنه سيثاب على الكبيرة من باب أولى، فلم أخر ذكر الكبيرة؟ ولماذا لم يتقدم ذكرها على الصغيرة؟

أولاً: يمكن معرفة ذلك بمعرفة سبب النزول. إذ روى البخاري عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت آية الصدقة (أي للتصدق لغزوة تبوك) كنا نحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا: مرائي. وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا. فنزلت الآية ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾[(٢)]،[(٣)].

ثانياً: «لما كان القليل قد يحتقر ابتدأ به ترغيباً»[(٤)].

(١) التوبة (١٢١).

(٢) التوبة (٧٩).

(٣) البخاري (١٤١٥).

(٤) نظم الدرر (٣/ ٤٠١- ٤٠٢).

ثالثاً: تقديراً لفقراء الصحابة الذين لا يجدون إلا نفقة صغيرة فينفقونها في سبيل الله فاستهزأ بهم المنافقون لذا «فيها إشارة إلى آية اللمز للمطوعين في الصدقات»[١]. فقدم الله تعالى ذكر الصغيرة رداً على المنافقين، وبيان عظم قدرها عند الله تعالى، ولئلا يظن أصحاب الصدقات الصغيرة أنهم في المؤخرة.

رابعاً: وكذا لبيان أن ما أنفقه المسلم مما يملك ولو كان قليلاً له أجر النفقة الكبيرة «سبق درهم مائة ألف درهم»، بل قد تفوق الصغيرة النفقة الكبيرة إما لأن النفقة الصغيرة خرجت من فقير لا يملك غيرها بينما الكبيرة خرجت من غني يملك أضعافها وقد قال ﷺ: «سبق درهم مائة ألف درهم. رجل له درهمان أخذ أحدهما فتصدق به، ورجل له مال كثير فأخذ من عُرضه مائة ألف فتصدق به»[٢]. وإما لاختلاف الموضع الذي بذلت فيه النفقة «فالنفقة الصغيرة في بعض المواضع كالنفقة الكبيرة في غيره»[٣].

خامساً: ولئلا يظن أهل الصدقات الكبيرة أن الله تعالى قد صد

(١) النظم (٣/ ٤٠١- ٤٠٢).

(٢) رواه أحمد (٢/ ٣٥٨)، والنسائي (٢٣١٨- ٢٣١٩)، وصححه ابن خزيمة (٢٤٤٤)، وابن حبان (٣٣٤٧)، والحاكم (١/ ٤١٤)، وحسنه الألباني.

(٣) مختصر تفسير المنار (٣/ ٣٦٤).

عنهم وأعرض عن ذكرهم، لذا ذكرهم. «فالمقصود التعميم لا خصوص المذكور إذ المعنى: لا ينقصون شيئاً ما»[١]. إذ «ربما تعنت متعنت فجعل ذكر النفقة الصغيرة قيداً فقال سبحانه: ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾ إعلاماً بأنه معتدٌّ به لئلا يترك»[٢]، والله أعلم.

(١) الشهاب الخفاجي (٤/ ٦٥٩).

(٢) النظم (٣/ ٤٠١- ٤٠٢).

هـ- أن أراد أن يبطش

ما الحكمة من قوله تعالى في قصة نبيه موسى عليه السلام : ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ [1] ؟ إذ ممكن أن يقال: [فلما أراد أن يبطش]، بحذف «أن» الأولى.

يمكن الإجابة عن ذلك بمعرفة تفصيل الحادثة التي حدثت لموسى عليه السلام مع الإسرائيلي المتشاجر. ذلك أن موسى عليه السلام بالأمس رأى إسرائيلياً يتشاجر مع فرعوني أي من طبقة ملوك مصر، ولما كان بنو إسرائيل مستضعفين مستخدمين لديهم تبادر إلى ذهن موسى عليه السلام أن الإسرائيلي مظلوم وأن المعتدي هو الفرعوني كما هو معروف عادة، فنصره موسى عليه السلام وضرب الفرعوني الذي سقط صريعاً، ولم يقصد موسى عليه السلام قتله فقال: ﴿... هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [2].

فبلغ الفراعنة خبر مقتله ولم يعلموا من قتله. فأصبح موسى عليه السلام في المدينة خائفاً يترقب، كثير الالتفات برقبته يتوقع

(١) القصص (١٩).
(٢) القصص (١٥-١٧).

المكروه، فإذا الإسرائيلي الذي طلب نصرته بالأمس يستصرخه مرة أخرى ويستنجده على فرعوني آخر حصلت بينهما مشاجرة فقال موسى عليه السلام للإسرائيلي: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر الغواية كثير الشر، وهذا بين واضح.

فتردد موسى عليه السلام في نصرة الإسرائيلي إذ ربما يكون هو الظالم وربما يكون مظلوماً، ولكن بعد هذا التردد توصل إلى غلبة الظن أن الإسرائيلي مظلوم، إذ يبعد أن يعتدي من هو من طبقة الخدم على من هو من طبقة الملوك [الفرعوني] ولقرائن أخرى بدت له أن الفرعوني هو المعتدي فذهب موسى عليه السلام لنجدة الإسرائيلي.

فمنذ بداية الاستغاثة إلى إرادة موسى عليه السلام البطش بالفرعوني الثاني حصل نوع من التردد لنصرة الإسرائيلي في فترة من الوقت، فهذا الفاصل من الوقت تم التعبير عنه بفاصل من الأحرف «أَنْ»، ويظهر ذلك جلياً في قراءة السكت على الساكن ما قبل الهمز ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾.

قال ابن الأثير: «جرت بيني وبين رجل من النحويين مفاوضة في قول الله تعالى عن موسى عليه السلام بعد قتله للفرعوني: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ

مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾(١).

فقال: إنَّ ﴿إِنْ﴾ الأولى زائدة في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ﴾ ولو حذفت فقيل [فلما أراد أن يبطش] لكان المعنى سواء، وقد اتفق النحاة على أن ﴿إِنْ﴾ الواردة بعد ﴿لِمَآ﴾ وقبل الفعل زائدة.

فقلت له: النحاة لا فتيا لهم في مواقع الفصاحة والبلاغة، ولا عندهم معرفة بأسرارهما من حيث أنهم نحاة، ولا شك أنهم وجدوا ﴿إِنْ﴾ ترد بعد ﴿لَمَّا﴾ وقبل الفعل في القرآن الكريم وفي كلام فصحاء العرب فظنوا أن المعنى بوجودها كالمعنى إذا سقطت، فقالوا: هذه زائدة. وليس الأمر كذلك، بل إذا وردت ﴿لَمَّا﴾ وورد الفعل بعدها بإسقاط ﴿إِنَّ﴾ دل ذلك على الفور، وإذا لم تسقط لم يدلنا ذلك على أن الفعل كان على الفور، وإنما كان فيه تراخ وإبطاء. ففي الآية دليل على أن موسى عليه السلام لم تكن مسارعته إلى قتل الثاني كما كانت مسارعته إلى قتل الأول، بل كان عنده إبطاء في بسط يده إليه، فعبر القرآن عن ذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ﴾.

(١) القصص (١٨ –١٩).

الوجه الآخر: أن هذه اللفظة لو كانت زائدة لكانت قدحاً في كلام الله تعالى، وذلك أنه يكون قد نطق بزيادة في كلامه لا حاجة إليها والمعنى يتم بدونها وحينئذ لا يكون كلامه معجزاً، إذ من شرط الإعجاز عدم التطويل الذي لا حاجة إليه، وإن التطويل عيب في الكلام، فكيف يكون ما هو عيب في الكلام من باب الإعجاز؟ هذا محال[١]. والله أعلم.

(١) المثل السائر (٢/ ١٥٢-١٥٣).

و- فلما أن جاء البشير

قال الله تعالى في سورة يوسف لما أعطى إخوته القميص ليلقوه على وجه أبيه ليرتد بصيراً: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًاۖ﴾(١). لماذا زيد حرف ﴿إن﴾ بين ﴿لَّمَا﴾ و﴿جَآءَ﴾؟ فهلا قيل فيها: [فلما جاء البشير] إذ لا يختل المعنى؟ يمكن معرفة ذلك بمعرفة تفاصيل القصة.

لقد فرق الإخوة بين يوسف عليه السلام وأبيه عليه السلام فترة من الزمن إلى أن قال لهم أبوهم بعد ما فقد بنيامين: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾(٢). فذهب قسم من الإخوة إلى مصر للبحث عن يوسف ومعرفة إمكانية استرجاع بنيامين، وبقي قسم آخر في الصحراء في البدو مع أبيهم يعقوب عليه السلام.

أما القسم الذي ذهب إلى مصر فدخلوا على عزيز مصر وقالوا له: ﴿... يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠

(١) يوسف (٩٦).

(٢) يوسف (٨٧).

يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ﴾[1] وخرجت من مصر ﴿... قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾[2].

فيعقوب عليه السلام شعر أن يوسف عليه السلام قريب منه، لقد وجد رائحته، فجاشت عاطفته، وتحرك وجدانه تجاه يوسف، وازداد شوقه للقائه فاستعجل لقاءه، ولكن الوقت يمشي بطيئاً، والدقائق تمر وكأنها ساعات، والساعة تمر عليه وكأنها يوم كامل إلى أن جاءه البشير فألقى القميص على وجه يعقوب عليه السلام فارتد بصيراً. فكأنه استبطأه وكأن وقتاً طويلاً مر عليه منذ أن وجد رائحته إلى أن جاءه البشير. هذا فاصل من الوقت تم التعبير عنه بفاصل من الأحرف ﴿أَن﴾ ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ﴾. «لأنه لما كان مجيئ البشير إلى يعقوب عليه السلام بعد طول الحزن وتباعد المدة ناسب ذلك زيادة ﴿إن﴾

(١) يوسف (٨٨-٩٤).

(٢) يوسف (٩٤-٩٥).

لما في مقتضى وصفها من التراخي»[(١)] . ويتضح ذلك في قراءة السكت لحمزة ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ وكذا في قراءة الوصل بغنة النون.

«فالمراد بها تصوير الفصل الذي كان بين قيام البشير بقميص يوسف عليه السلام وبين مجيئه لبعد ما كان بين يوسف وأبيه عليهما السلام، وأن ذلك كان منتظراً بقلق واضطراب، تؤكدهما وتصف الطرب لمَقْدَمِهِ واستقراره غُنَّةُ هذه النون في الكلمة الفاصلة وهي ﴿إن﴾ في قوله ﴿أَن جَآءَ﴾[(٢)] .

«فمن نظر في قصة يوسف عليه السلام مع إخوته منذ ألقوه في الجب إلى أن جاء البشير إلى أبيه عليه السلام وجد أنه كان ثَمّ إبطاء بعيد، وقد اختلف المفسرون في تلك المدة، ولو لم تكن ثَمّ مدة بعيدة وأمد متطاول لما جيء بـ ﴿إِنَّ﴾ بعد ﴿لَّمَّا﴾ وقبل الفعل، بل كانت تكون الآية [فلما جاء البشير ألقاه على وجهه]. وهذه دقائق ورموز لا تؤخذ من النحاة لأنها ليست من شأنهم»[(٣)] ، والله أعلم.

* * *

(١) البرهان للزركشي (٤/ ٢٢٧).
(٢) إعجاز القرآن للرافعي (٢٦).
(٣) المثل السائر (٢/ ١٥٣).

المراجـع

- ابن جرير: انظر جامع البيان.
- ابن حبان: انظر صحيح ابن حبان.
- ابن خزيمة: انظر صحيح ابن خزيمة.

١- الأدب المفرد الجامع للآداب النبوية: لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، دار الصديق- الجبيل، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ- ١٩٩٩م.

٢- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

٣- أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها من غرائب آي التنزيل: محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، المكتبة العصرية- بيروت، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

٤- أسس النقد الأدبي عند العرب: د. أحمد أحمد بدوي، نهضة مصر.

٥- الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ: د. محمد الأمين الخضري، مطبعة الحسين- القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.

٦- إعجاز القرآن والبلاغة القرآنية: مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان. الطبعة التاسعة، ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م.

٧- إعراب القرآن الكريم وبيانه: لمحيي الدين الدرويش، اليمامة - دار ابن كثير، دمشق، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

٨- البحر المحيط: لأبي عبدالله محمد بن يوسف بن علي بن حيان الأندلسي الغرناطي الشهير بأبي حيان، مكتبة ومطابع النصر الحديثة- الرياض.

٩- بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية، جَمَعَهُ يسري السيد محمد، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.

١٠- بدائع الفوائد: لأبي عبدالله محمد بن أبي بكر قيم الجوزية، دار الكتاب العربي- بيروت.

١١- البديع في ضوء أساليب القرآن: د. عبدالفتاح لاشين، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثالثة ١٩٨٦م.

١٢- البرهان في ترتيب سور القرآن: أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، تحقيق محمد شعبان، المملكة المغربية- وزارة الوقاف والشئون الإسلامية، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

١٣- البرهان في توجيه متشابه القرآن: محمد بن حمزة بن نصر الكرماني، تحقيق عبدالقادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية- بيروت، توزيع دار الباز- مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

١٤- البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الجيل- بيروت، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

- البقاعي: انظر نظم الدرر.

١٥- البيان والتبيين: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٣٢م. تحقيق حسن السندوبي.

- البيضاوي: انظر تفسير البيضاوي.
- البيهقي: انظر السنن الكبرى.

١٦- تاريخ العرب: د. فيليب حتي، وإدوارد، وجبرائيل جبور، دار غندور، بيروت- لبنان، ١٩٨٦م.

١٧- التحرير والتنوير: لمحمد الطاهر بن عاشور. مكتبة ابن تيمية، الدار التونسية للنشر- تونس ١٩٨٤م.

- الترمذي: انظر سنن الترمذي.
- تفسير ابن جرير: انظر جامع البيان.
- تفسير ابن عطية: انظر المحرر الوجيز.
- تفسير ابن كثير: انظر تفسير القرآن العظيم.
- تفسير الإيجي: انظر جامع البيان.

١٨- تفسير البيضاوي: لأبي سعيد ناصر الدين عبدالله بن عمر بن محمد، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

١٩- تفسير الجلالين: لجلال الدين محمد بن أحمد المحلي الشافعي وجلال الدين عبدالرحمن السيوطي، مطبوع مع شرحه الفتوحات الإلهية، دار الكتب.

- تفسير الجمل: انظر الفتوحات الإلهية.

٢٠- تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الخازن، المطبعة النبهانية- مصر ١٣٤٧هـ.

● تفسير الرازي: انظر التفسير الكبير.

٢١- تفسير السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي، جمعية إحياء التراث الإسلامي- الكويت، الطبعة الخامسة، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠ م.

٢٢- تفسير الشعراوي: محمد متولي الشعراوي، تخريج د. أحمد عمر هاشم، أخبار اليوم- القاهرة ١٩٩١م.

٢٣- تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان: لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق- مصر، ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.

٢٤- تفسير القرآن: لأبي المظفر السمعاني منصور بن محمد بن عبدالجبار التميمي المروزي الشافعي السلفي. تحقيق ياسر بن إبراهيم وغنيم عباس. دار الوطن- الرياض. الطبعة الأولى ١٤١٨هـ- ١٩٩٧ م.

٢٥- تفسير القرآن العظيم: لأبي الفداءِ إسماعيل عماد الدين بن عمر بن كثير القرشي، الشعب- القاهرة.

٢٦- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين التميمي البكري الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ- ١٩٩٠م.

- تفسير الماوردي: انظر النكت والعيون.

٢٧- تفسير المراغي: لأحمد بن مصطفى المراغي، دار إحياء التراث العربي- بيروت.

- تفسير المنار: انظر مختصر المنار.

٢٨- جامع البيان في تفسير القرآن: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار المعرفة- بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.

٢٩- جامع البيان في تفسير القرآن: معين الدين محمد بن عبدالرحمن الحسيني الإيجي الشافعي. شركة غراس- الكويت، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.

٣٠- الجامع لأحكام القرآن: أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. عالم الكتب- الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م.

- الجلالين: انظر تفسير الجلالين.

- الجمل: انظر الفتوحات الإلهية.

٣١- حاشية الشهاب، المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي: للقاضي شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي. دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

٣٢- خصائص التركيب: د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة- القاهرة، الطبعة الثالثة.

- دراز: انظر النبأ العظيم.

٣٣- درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز: لأبي عبدالله محمد بن عبدالله المعروف بالخطيب الإسكافي، دار الآفاق الجديدة- بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٧م.

٣٤- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي. دار القلم- دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

٣٥- الدر المنثور في التفسير بالمأثور: لجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار المعرفة- بيروت.

- الراغب: انظر المفردات.

٣٦- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: للعلامة أبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، الطبعة الثانية.

٣٧- روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لشمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية- بيروت، ١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م.

٣٨- الروض الريان في أسئلة القرآن: شرف الدين الحسين بن سليمان الريان، مكتبة العلوم والحكم- المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.

٣٩- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها: لمحمد ناصر الدين الألباني، الدار السلفية- الكويت. الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

٤٠- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها. محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م.

- سنن البيهقي: انظر السنن الكبرى.

٤١- سنن الترمذي: ويسمى بالجامع الصحيح، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، المكتبة الإسلامية- تحقيق أحمد محمد شاكر.

٤٢- السنن الكبرى: لأبي بكر بن سعد بن الحسين بن علي البيهقي. دار الفكر.

٤٣- السنن الكبرى: لأبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تخريج أبي أنس جاد الله بن حسن الخداش، مكتبة الرشد- الرياض، الدار العثمانية- عمان، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

٤٤- سوق عكاظ ومواسم الحج: عرفان محمد حَمُّور، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.

٤٥- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان: لمحمد بن حبان بن أحمد أبي حاتم التميمي البُستي السجستاني، بترتيب علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.

٤٦- صحيح ابن خزيمة: أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السّلمي النيسابوري، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي- بيروت.

٤٧- صحيح البخاري: للإمام محمد بن إسماعيل البخاري- دار السلام، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.

٤٨- صحيح الجامع الصغير: لجلال الدين السيوطي بتحقيق محمد ناصر الدين الألباني. منشورات المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ- ١٩٦٩م.

٤٩- صحيح مسلم: لأبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، دار السلام- الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

٥٠- الصناعتين: لأبي هلال العسكري، مطبعة محمد علي صبيح.

- الطبراني: انظر المعجم الكبير.
- غرائب القرآن: انظر تفسير غرائب القرآن.

٥١- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: لأبي يحيى زكريا الأنصاري، دار القرآن الكريم- بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

٥٢- فتح القدير الجامع بين فنَّي الرواية والدراية من علم التفسير: لمحمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة- بيروت.

٥٣- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية: سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.

٥٤- الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم: د. محمد بن عبدالرحمن الشايع، مكتبة العبيكان- الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.

٥٥- في ظلال القرآن: لسيد قطب، دار الشروق- القاهرة، الطبعة الخامسة والعشرون، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.

٥٦- القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.

- القرطبي: انظر الجامع لأحكام القرآن.

٥٧- قول على قول: حسن سعيد الكَرمى، دار لبنان للطباعة والنشر- بيروت، الطبعة التاسعة ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

٥٨- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، دار الباز- مكة المكرمة، دار المعرفة- بيروت.

٥٩- كشف المعاني في المتشابه والمثاني: لبدر الدين أبي عبدالله محمد بن إبراهيم ابن جماعة، دار الشريف- الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ.

٦٠- لسان العرب المحيط: لمحمد بن مكرم بن علي الأنصاري الأفريقي جمال الدين أبو الفضل المعروف بابن منظور، دار لسان العرب- بيروت.

٦١- المتشابه اللفظي في القرآن ومسالك توجيهه عند أبي جعفر بن الزبير الغرناطي: دراسة وتحقيق د. رشيد الحمداوي، مكتبة أولاد الشيخ للتراث- مصر.

٦٢- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: لأبي الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد المعروف بابن الأثير الموصلي، المكتبة العصرية،

صيدا- بيروت، ١٤١١هـ- ١٩٩٠م.

٦٣- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية: جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي، وابنه محمد، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ.

٦٤- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لأبي محمد عبدالحق بن عطية الأندلسي، دار ابن حزم، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

٦٥- مختصر تفسير المنار: لمحمد رشيد رضا، المكتب الإسلامي- بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.

٦٦- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: لأبي عبدالله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي- بيروت، ١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م.

٦٧- مدارك التنزيل: أبو البركات عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي، دار إحياءِ الكتب العربية- عيسى البابي الحلبي (بولاق).

٦٨- مستدرك الحاكم: للإمام أبي عبدالله محمد عبدالله الحاكم، دار المعرفة- بيروت.

٦٩- مسند أحمد: للإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، دار صادر- بيروت.

٧٠- معاني القرآن: أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، عالم الكتب- بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٠م.

٧١- المعجم الكبير: لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق حمدي السلفي، وزارة الأوقاف في الجمهورية العراقية، الطبعة الأولى.

٧٢- معجم متن اللغة: أحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت- لبنان ١٩٨٥م.

٧٣- المفردات في غريب القرآن: لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، دار المعرفة- بيروت.

٧٤- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل: لأحمد بن الزبير الغرناطي، دار النهضة العربية- بيروت، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

٧٥- من روائع القصص في السيرة النبوية. عدنان عبدالقادر- خالد الخراز، رمادى للنشر- الدمام، ١٤١٨ه- ١٩٩٧م.

٧٦- النبأ العظيم: د. محمد عبدالله دراز، دار القلم- الكويت، الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م.

- النسائي: انظر السنن الكبرى.

٧٧- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق عبدالرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

٧٨- النكت والعيون: لأبي الحسن علي بن حبيب الماوردي البصري، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية- الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

٧٩- وضح البرهان في مشكلات القرآن: محمد بن أبي الحسن الغزنوي بيان الحق النيسابوري، تحقيق صفوان عدنان، دار القلم- دمشق، الديار الشامية- بيروت.

❊ ❊ ❊

الفهرس

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

تم بحمد الله

تم الإخراج بشركة غراس للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع
- هاتف ٢٤٨١٩٠٣٧ - فاكس ٢٤٨٣٨٤٩٥ بدالة المطبوعات 24810010 - الكويت